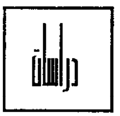
د. فيصل السامر

ثورة الزنج



ثورة الزنج

منشورات





Author : Dr. Faisal As-Samer
Title: The Revolution of the Zanj
Al- Mada Publishing Company
First Edition 1954
Second Edition 2000

اسم المؤلف : د. فيصل السامر
عنوان الكتاب : ثورة الزنج
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : عام ١٩٥٤
الطبعة الثانية : عام ٢٠٠٠

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

د. فيصل السامر

ثورة الزنج



الى الباحثين عن الحقيقة، العاملين على اظهارها،

الهادفين نحو اخراجها الى مجال العمل.

تصدير*

لعل الدافع الأول الذى دفعني الى اختيار هذا الموضوع ، هو ان الحركات الاجتماعية في الاسلام لم تحظ بما حظيت به النواحي السياسية والحربية من الاهتمام من جانب القدماء والمحدثين على السواء ، حتى لقد اتهم الشرق الاسلامي بالعقم والجمود ، فقيل انه لم يشهد ما شهد الغرب المسيحي من القلق الاجتماعي والهزات الفكرية ، وبعبارة أخرى ان التاريخ الاسلامي كان - في نظر البعض - مجرد مجازر وحروب ومؤامرات واغتيالات تدبر بطريقة غامضة - غموض الشرق - في قصور الخلفاء والأمراء . وما زلنا نقرأ عن النهضة الأوربية والثورة الفرنسية والثورة الصناعية فنشعر لإكبار والإجلال للشعوب الأوربية التي خرجت الى النور بعد كفاح مرير تعززه برامج فكرية واجتماعية ما زالت حتى اليوم تثير القارىء الشرقي وتملأ نفسه بالاعجاب . وليس الذنب ذنب التاريخ الاسلامي ، بل هو ذنب المؤرخين الشرقيين المحدثين ، الذين ما زال أكثرهم يحتذي حذو الأسلاف في كتابة التاريخ :

* كنت قد قدمت بحثاً بعنوان «حركة الزنج وأثرها في تاريخ الدولة العباسية» نلت به درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي من جامعة فؤاد الأول (القاهرة) . وحين طلبت إليّ دار القارىء نشره في سلسلة منشوراتها ، ارتأيت أن احذف كثيراً من التفاصيل غير الجوهرية وأن أحور فيه قليلاً فكان هذا البحث الذي نضعه بين يدي القارىء .

سير الخلفاء والأمراء والوزراء في حياتهم الخاصة بمعزل عن التيارات الاجتماعية والفكرية المعاصرة .

لقد أخذت على عاتقي أن أقدم للقارىء العربي هذا البحث المتواضع عن ثورة الزنج لاقيم الدليل على أنه من الممكن جداً أن نكتب تاريخنا بأسلوب جديد يعير الحركات الاجتماعية أهمية كبيرة وينظر اليها بمنظارجديد غير المنظار الذي نظر به المؤرخون القدامى ، أعني اننا يجب أن نعتبرها خطوات خطتها الشعوب الاسلامية نحو تحسين أوضاعها ، بغض النظر عن عدم انسجامها مع مصالح السلطات الحاكمة . وليس هذا فحسب بل ان الامانة العلمية تدعونا الى أن نعطي الحدث التاريخي حقه لا أكثر ولا أقل ونضعه في مكانه الصحيح من السلم التاريخي دون مبالغة أو تهويل أو انسياق وراء الخيال . ان الحقيقة التاريخية هي الهدف الأول للباحث ويجب عليه أن يعلنها مهما كلفه الأمر ، دون أن يتوقع رضى فريق أو غضب فريق آخر . ومن ثم فقد هدفت في هذا البحث الى أن أضع «ثورة الزنج» في مكانها التاريخي الصحيح مستنداً الى النصوص التاريخية بعد التحقيق والتمحيص ، كما حاولت جهدي أن تكون أحكامي مجردة عن كل هوىً أو تحيز ، وهي صفة يجب أن يتحلى بها كل من يتصدى لكتابة التاريخ .

ان الصعوبة التي تعترض سبيل بحثي ، هي اهتمام المؤرخين القدماء بتفاصيل الاشتباكات الحربية بين الزنج والعباسيين ، دون أن يحاولوا بحث طبيعة الحركة ومبادئها وتنظيمات الدولة ـ القصيرة العمر ـ التي شكّلها علي ابن محمد «صاحب الزنج» عدا بعض الاشارات الخاطفة المبعثرة هنا وهناك بين بطون المراجع . غير اني حاولت أن أقدم فكرة شاملة واضحة عن هذا الموضوع من جميع وجوهه ، فتناولت ـ علاوة على وجه الحركة العسكري ـ

طبيعتها وبرامجها وتنظيماتها الداخلية وعلاقتها بالحركات الأخرى ، وهي نواحي غامضة لم يلق عليها بعد ضوء ساطع ينير مجاهلها . واني لا استطيع هنا أن أزعم بأني وفيت الموضوع كل حقه ووصلت به الى الكمال ، بل اعتبر هذا العمل مجرد مجهود متواضع في ناحية من نواحي تاريخنا ، أرجو مخلصاً أن يتصدى لها آخرون بالبحث والتحقيق المستفيض* .

المؤلف

* يجد القارىء أني لم أجعل الهوامش ضمن صفحات البحث ، بل جمعتها في آخر كل فصل مرقمة حسب تسلسلها ، وذلك تسهيلاً للقراءة والمراجعة .


العراق
القياس بالميل الانكليزي
الكوفة
الحيرة
واسط
هور
عبدسي
البصرة
الأهواز
عسكر مكرم
تستر
جنديسابور

الفصل الأول

الزنج وأحوالهم الإجتماعية

الرق ـ نشأته وتطوره

عرف الرق كمظهر من مظاهر الحياة البشرية منذ أقدم العصور ، وظل قائماً معترفاً به اجتماعياً وقانونياً في كافة المجتمعات الانسانية القديمةوالوسيطة بل والحديثة أيضاً . ولا شك أن الحرب كانت السبب الرئيسي في قيام الرق في العصور القديمة ، فقد كان القوي يلزم الضعيف بالعمل لمصلحته ولحسابه ، وكان المنتصر يسترق الأسرى لينتفع بهم في خدمته ، وأخذ الرق يكتسب طابعه الاجتماعي المعروف كلما اشتدت الحروب واتسع نطاقها ، وكثر ـ نتيجة ذلك ـ عدد الأسرى . وهكذا نجد الاسترقاق في مصر القديمة ووادي الرافدين ، وفي الهند حيث اعترفت به شريعة «مانو» ، وكذلك في الصين وفارس وبلاد العبرانيين حيث اعتبره أنبياء اسرائيل من وسائل الثروة والغنى[١] .

وقد ادى تقدم الصناعة والعمل في بلاد الأغريق الى تطلب الأيدي العاملة ، فاستورد الرقيق باعداد ضخمة من آسيا الصغرى وتراقيا ، وأصبحت تجارة النخاسة مصدراً للربح الوفير ، واذا كان أسرى الحروب اتخذوا عبيداً في البيوت منذ أقدم العصور اليونانية ـ كما يدل شعر هومر ـ فإن هذا لم

يكن مظهراً اجتماعياً حاداً ، غير ان شراء الرقيق وتسخيرهم في العمل منذ القرن السابع قبل الميلاد برهن على أنه من العوامل الأساسية التي هدمت كيان المدن اليونانية ، لذلك تميّز النصف الثاني من القرن السابع بصراع عنيف بين السادة والعبيد[٢] . وانه على الرغم من تقدم الديمقراطية في اثينا في القرن الخامس ، فقد ظلت جميع الانظمة ـ وكذلك الفلاسفة ـ تعتبر الرقيق أداة لازمة لرفاهية المواطن الأثيني الحر .

ان توسع روما وقيامها بالفتوحات شرقاً وغرباً ملأ ايطاليا بأفواج هائلة من العبيد الأسرى الذين استخدموا في الزراعة تحت ظروف سيئة الى أقصى الحدود . وحين توقف التوسع الروماني ولم تعد الحروب مورداً للحصول على أدوات الانتاج ، أخذ النخاسون والقراصنة يتصيدون العبيد في البحر الإيجي وفي حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي[٣] . وهكذا أغرق الريف في ايطاليا وصقلية بآلاف العبيد الذين كانوا يرزحون تحت وطأة العمل الشاق والاضطهاد الاجتماعي المرير ، مما أدى الى قيامهم بعدة ثورات خطيرة هددت الحكومة الرومانية في الصميم . ولعل أجدر هذه الثورات بالاشارة ثورتا العبيد في صقلية سنة ١٣٥ ق .م وسنة ١٠٤ وثورة سبارتاكوس سنة ٧٣ ق .م .

تجمع العبيد في صقلية سنة ١٣٥ ق .م بزعامة عبد سوري الأصل هو يونوس وآخر يدعى كليون ، فهبوا في وجه ملاك الأراضي يطالبون بحريتهم . وانضم الى العبيد جميع الهاربين والساخطين حتى غدا جيش الثورة يبلغ ستين ألفاً عداً ، وشكل يونوس دولة وتلقب بلقب «انطيوخوس» وأصدر نقوداً وكون مجلساً يتولى تصريف شؤون دولته . واستطاع الثوار أن يستولوا على أكثر مدن صقلية ويهزموا عدة جيوش رومانية بين عامي ١٣٥ ـ ١٣٢ ق .م وانه وان استطاع القنصل روبيليوس أن يقمع هذه الثورة ، لكنها

أثبتت للمسؤولين خطر نظام قنية الأرض[٤] ، وكانت حافزاً لحكومة روما على أن تقرر الغاء الرق سنة ١٠٤ ق .م . غير ان دعوة الحكومة هذه كانت تتعارض مع مصالح الاقطاعيين في صقلية ، فلم يقوموا بخطوة إيجابية في تحرير عبيدهم ، ومن ثم تزعم أثينيون وسلافيوس جموع العبيد في مزارع صقلية الواسعة وأعلنا الثورة سنة ١٠٣ ق .م ، على نفس الأسس التي تميزت بها ثورة يونوس ، ولاقت هذه الثورة الجديدة من النجاح ما لاقته سابقتها ، غير انها محقت في النهاية عام ١٠١ ق .م نتيجة وقوف الدولة في وجهها لحماية مصالح السادة المتنفذين[٥] .

على أن المجتمع الروماني شهد أخطر ثورة قام بها العبيد عام ٧٣ ق .م حين تصدى لزعامتهم رجل تراقي الأصل يدعى سبارتاكوس كان جندياً في الجيش الروماني ثم ذاق مرارة العبوديةوتعرض للاضطهاد والتعذيب في مستعمرات العبيد المصارعين . ذلك أن الرومان كانوا يدربون العبيد ويستخدمونهم في مصارعة الحيوانات الضارية ، ليتسلوا بمنظر الدماء تراق في ملاعب روما . واستطاع سبارتاكوس أن يجمع تحت زعامته أفراد أربع وسبعين مستعمرة من مستعمرات العبيد فانسحب بهم الى قمة فيزوف . وانضم الى الثوار العبيد الزراعيون والأبّاق من التراقيين والغاليين والجرمان . وقد فشلت جميع محاولات الحكومة الرومانية في هزيمة العبيد ، حتى أصبح هؤلاء سادة القسم الجنوبي من ايطاليا بأجمعه . غير ان كراسوس استطاع سنة ٧١ ق .م أن يحاصر الثائرين ويمنع عنهم المؤن ، ويشتت شملهم بعد حصار دام ستة أشهر . وقد برهن سبارتاكوس وصحبه على بسالة نادرة وخروا صرعى في «ابوليا» ، وأنهى كراسوس هذه المجزرة بعمل وحشي لا يغتفر ، فقد شنق ستة آلاف من العبيد ـ وهم كل من تبقى من جيش العبيد الضخم ـ على طول الطريق من كابوا الى روما[٦] .

ظل الرق سائداً في روما وساعد على استفحاله كثرة الحروب التي خاضتها الدولة الرومانية ، وكان النخاسون يرافقون الجيوش الغازية ، وكثيراً ما كان يتفق بيع آلاف الأسرى عقيب فوز عظيم بثمن بخس ، فيقبل النبلاء والأغنياء على اقتنائهم . غير أن الحكومة الرومانية خطت خطوة ايجابية في هذا السبيل فحرمت خطف العبيد ، كما ان فلسفة الرواقيين الانسانية عملت على تحسين أحوالهم ، وانه وان لم يلغ الرق فقد تحول الى قنية وأصبح العبد في أيام الأمبراطورية الأخيرة يتمتع بقسط من الحرية ويشارك أسياده في الولوع الفنية والثقافية كما أظهر كثير من العبيد براعة خاصة في الحرف والصناعات[٧] .

أما في العصور الوسطى فعلى الرغم من بعض المحاولات التي قام بها بعض الأباطرة أمثال فالنتيان لتحسين حال الارقاء ، وما صاحب انتشار المسيحية من الدعوات الانسانية ، فان الرق كوّن مظهراً اجتماعياً بارزاً في مدنية أوربا الوسيطة . بل أننا نجد الكنيسة الجرمانية تقف موقف المتفرج من نشاط النخاسين اليهود في تصديرهم العبيد الى البلدان الاسلامية[٨] . لقد كانت الزراعة ـ طوال العصور الوسطى ـ تقوم على نظام القنية ، وكان الاقنان طبقة أشبه بالعبيد ، بل أن هاتين الطبقتين امتزجتا معاً ، وكانتا أحط طبقات المجتمع الأوربي[٩] .

واذا كان المورد الأساسي للرقيق في العصور القديمة والوسيطة هم أسرى الحروب ، فان حركة الاستكشاف وما تلاها من الاستعمار فتحا باباً جديداً للرق ، حيث أخذ الأوربيون يجلبون الزنوج الأفريقيين لتشغيلهم في المستعمرات[١٠] . ان الرق الحديث الذي مارسته الحضارة المسيحية كإسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا وبريطانيا ليصم الحضارة المسيحية بوصمة العار ،

ذلك أن الرق في العصور الحديثة كان يفوق الرق القديم بشاعة ووحشية ، فقد عومل الزنوج في مزارع قصب السكر والقطن والتبغ كما لو كانوا مجردين عن الروح والشعور[١١] . ولم يبدأ الضمير الأوربي في الاستيقاظ حتى القرن التاسع عشر حين حرم الرق كلية في البلدان الأوربية . وما زال التمييز اللوني قائماً في الولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة في الجنوب ، واذا رجعنا الى «القانون الأسود» لولاية لويزيانا نجد أنه كان من أصرم القوانين الخاصة بالرقيق حتى كان للسيد الحق المطلق في بيع عبده واجارته ورهنه وخزنه والمقامرة عليه[١٢] .

الرق في الاسلام:

قام العبيد بدور خطير في التاريخ الاسلامي ، ونحن نقابل في جميع مراحله عبيداً أو موالي شغلوا مكاناً بارزاً في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية . لقد كانت هذه الطبقة ـ منذ ظهور الاسلام ـ من الطبقات النشيطة الفعالة في جميع المجالات ، فظهر بين أفرادها قواد عظام وأمراء كبار ومفكرون وفنانون نابغون .

كان المصدر الرئيسي للرق في الاسلام الحروب التي خاضها المسلمون ضد الدولتين الفارسية والبيزنطية ورعاياها ، فاذا انتصر المسلمون على جيش معادٍ أو فتحوا بلدا من البلدان أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله واقتسموا الأسرى والسبايا باعتبارهم غنائم حرب . واذا كان الأسرى كثيرين بيعوا جملة ، وقد بيع الأسير أثر بعض الانتصارات بثمن بخس قد يصل الى درهم واحد[١٣] . وعلاوة على أسرى الحروب كان بعض العمال وبخاصة في أفريقيا وتركستان ومصر يؤدون بعض خراجهم من الرق ، وكان بعض أهل

الكتـاب يقـدمـون الرقـيق من أولادهم على سـبـيل الجـزية[١٤] . ويروي المسعودي[١٥] : ان الفاتحين المسلمين صالحوا النوبة على رؤوس من السبي معلومة ، وظلوا يتسلمون سنوياً حتى القرن الرابع مئات من العبيد .

إن الاسلام لم يضع حداً للرق لكن القرآن نصح بحسن معاملتهم ودعا المسلمين الأتقياء الى تحريرهم ، وهناك بعض الآيات (النساء ـ آية ٢٥ و٣٦) أوصت بتخفيف الحد على الارقاء وحضت على الرفق بهم . وقد أثر عن الرسول جملة أحاديث تدل على ميله الى تحسين حال هذه الطبقة والرغبة في تحريرها ، منها قوله : «الصلاة وما ملكت ايمانكم» و«اتقوا اللّه في الضعيفين المملوك والمرأة» . و«لقد اوصاني حبيبي جبرائيل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم» و«اتقوا اللّه فيما ملكت ايمانكم» و«اخوانكم خولكم [اي خدمكم] جعلهم اللّه تحت أيديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس»[١٦] . وورد للإمام الغزالي في هذا المعنى قوله[١٧] : «كان آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اتقوا اللّه فيما ملكت ايمانكم ، اطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق اللّه فإن اللّه ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم» .

كانت الأسرة الاسلامية الميسورة الحال تقتني الرقيق من البيض والسود باعتبارهم مصدراً للثروة والرفاهية والجاه . وانتشر الرقيق الأبيض ـ من الروم وغيرهم ـ في قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء حتى كانت أمهات بعض الخلفاء «أمهات ولد» من غير الجنس العربي . واذا أردنا أن نبحث عن مكانة العبد في المجتمع الاسلامي يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار ملاحظة هامة هي ضرورة التفريق بين الاحكام الفقهية النظرية التي نظمت أحوال

الرقيق وبين حالتهم الواقعية وأوضاعهم الاجتماعية الفعلية . ذلك ان السادة لم يكونوا مثاليين دائماً ، ولم تكن آيات القرآن وأحاديث الرسول وأحكام الفقهاء لتستطيع حملهم على معاملة عبدهم بما هو واجب ـ دينيا ـ من الرفق والتسامح . ومن ثم سنبحث الاحكام الفقهية النظرية ثم نجمل الأوضاع الاجتماعية للرقيق في الاسلام .

لم يكن للعبد كيان اجتماعي مستقل أو شخصية متكاملة ، بل كان يعتبر جزء من متاع سيده وثروته اكتسبه بالشراء أو الارث أو الهبة شأن أية ثروة أخرى . وفي وسع السيد ان ينقل هذه الثروة ـ اي العبد ـ الى غيره بنفس الوسائل القانونية التي اكتسبها بها ، ذلك ان وصية السيد بخدمة رقيقه وغلته جائزة وهو يحسب مع الإرث أي أنه يورث[١٨] . ويستطيع المالك أن يوصي بعبده لرجل وبخدمته لآخر ، أي ان العبد يمكن أن يكون ملكاً بين شخصين أو أكثر[١٩] . ولما كان العبدثروة مطلقة لسيده فهو يستطيع أن يبيعه أو يرهنه كما يرهن المتاع أو يبيعه[٢٠] . وكان العبد اذا أذنب يضرب نصف ما يضرب الحر[٢١] .

أما حقوق العبيد في الاسلام فإن الطفل الذي يولد للمسلم من أمته يكون حراً ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد ، التي لا يمكن أن تباع أو توهب والتي تغدو حرة بموت سيدها[٢٢] . واذا كان العبد بالغاً راشداً أمكنه أن يتقلد منصباً ، ومع أن المبدأ أن يكون ما يحصل عليه العبد لسيده ، فهو يستطيع أن يحتفظ بشيء من كسبه يوفره لنفسه[٢٣] . ويسع العبد أن يتزوج بأمة كما أن في وسع الأمة أن تخطب إلى رجل حر أو عبد ، الا ان أولادها يكونون عبيداً لسيدها . أما الصداق فيدفعه العبد من المال الذي وفره من عمله وخدمته أو يدفعه عنه سيده[٢٤] .

ينظر القرآن والسنة الى تحرير العبد كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المـرء ، ويسـتطيع السـيـد أن يعـتق عـبـده بأية صـيـغـة على أن لا تـكون غامضة[٢٥] . وقد أوجد الاسلام طريقة للعتاق هي المكاتبة وهي تشبه تماماً العقـود المعروفـة في القانون الروماني باسم Peculium[٢٦] ، وهي أن يحرر السيد عبده اذا دفع له هذا مبلغاً يتفقان عليه من المال ، بممارسته لمهنة ما تدر عليه المال اللازم . وقد نص القرآن على المكاتبة على مبلغ معين ولا ينال العبـد حريته الا اذا أدى جميع هذا المبلغ[٢٧] . والمكاتب أو المكاتبة لهما مطلق الحرية في العمل وليس لمولاهما أن يمنعهما من ذلك[٢٨] .

يظل العبـد المعتق مرتبطاً بسيده بالولاء ، وقد أثر عن الرسـول انه قال : «الولاء لمن اعتق»[٢٩] . سواء في ذلك الرجال والنسـاء ، وسواء من عتق بقـول مولاه ، أو بعتاق عنه بأمره في حياته ، أو بعد وفاته ، أو باداء مكاتبه اليه ، أو باداء مال اليه اعتقه عليه[٣٠] . وليس الولاء مجرد ارتباط العبد بسيده بروابط عاطفية واجتماعية فحسب ، بل عليه التزامات قانونية معينة : من ذلك أن يأخذ السيد ما تركه عبده المعتق من ثروة في حالة عدم وجود وارث له ، كما ان السيد هو الوصي الطبيعي على عبده المعتق وعلى ذريته[٣١] . ومن هنا نلاحظ ان الولاء مرحلة بين الرق والحرية .

الزنج وأحوالهم الاجتماعية:

نستطيع أن نقسم العبيد في العالم الاسلامي الى نوعين : عبيد البيوت وهم الخصيان ، وكانوا أحسن حالاً وربما شاركوا أسيادهم في اهتماماتهم وتمتعوا بطيبات الحياة ، وكتل العبيد الكبيرة الذين سخروا للعمل في الاقطاعيات الزراعية في العراق الأدنى وكانوا في وضع اجتماعي بائس . واذا

كانت الشريعة الاسلامية قد اشترطت أن يستعبد الأسرى في حالة حرب شرعية مع الكفار بعد الإنذار والإشهار[٣٢] ، فان التطور الاقتصادي الذي شهده العالم الاسلامي من ناحية ، وتغلب المصالح المادية على الشعور الديني من ناحية ثانية ، أديا الى قيام نوع جديد من الرق لم يكن مشروعاً ولا مقبولاً هو النخاسة ، أو تجارة الرقيق التي انتشرت في أسواق الشرق وبخاصة في بغداد وما صاحبها من صناعة الخصيان من الافريقيين أو صقالبة الحبشة وأوربا في العصر العباسي ، مما كان ينافي جميع المعايير الحضارية والانسانية[٣٣] .

كانت أفريقيا الشرقية ـ وبخاصة اجزاؤها الساحلية ـ خير مورد للنخاسين المسلمين يحصلون منه على العبيد السود ، كما ظلت قبلة تجار الرقيق الأوربيين حتى وقت قريب[٣٤] . ولما كانت ثورة الزنج ـ موضوع البحث ـ هي ثورة العبيد الافريقيين في وجوه أسيادهم ، فانه يتحتم علينا أن نلقي نظرة سريعة على بلادهم الأصلية التي انتزعوا منها ، ونجمل مظاهر هذه التجارة التي كونت عيباً أساسياً من عيوب المجتمع الاسلامي الوسيط .

جلب تجار الرقيق المسلمون العبيد السود من ساحل افريقيا الشرقي ، وهي أرض الزنج التي أطلقها العرب على زنجبار أو زنزبار ، وجزء من المنطقة الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر والحبشة ، بالاضافة الى مساحات أخرى في افريقيا الداخلية ، وكان هذا الساحل خاضعاً للنفوذ العربي منذ أقدم العصور[٣٥] ، وكان الاعتقاد السائد ان ليس وراء بلاد الزنج زرع أو ضرع . ولما كان لفظ الزَنج (أو الزِنج أو الزُنج) يطلق أحياناً على جميع العبيد السود ، قيل ان بلادهم تمتد من الاجزاء الشرقية لأفريقيا حتى الحبشة تقريباً ، وبعبارة أخرى كل بلاد العبيد التي عرفها العرب القدماء

والتي تشمل جزء من الأراضي الممتدة على النيل ، حيث عاشت شعوب وعشائر مختلفة[٣٦] .

أسس العرب المسلمون منذ سنة ٧٢٠م مستعمرات اسلامية على ساحل افريقيا الشرقية بين Lamu ونهر Rufu ، فلما أهل العصر العباسي ونشطت الحركة التجارية على طول السواحل العربية للخليج الفارسي ، قامت علاقات تجارية مع مدغشقر وافريقيا الشرقية بصورة عامة ، وتأسست نتيجة لهذه العلاقات مستوطنات عربية اسلامية جديدة على طول ساحل الصومال في لامو وممباسا وزنزبار[٣٧] وموزمبيق ، بل ان النفوذ الاسلامي وصل في وقت متأخر الى الزنبيزي بحيث قامت صلات تجارية مع مونوموتابا وهي روديسيا الحديثة[٣٨] . وقد عرف العرب ـ نتيجة لذلك ـ زنوج البانتو وهم أكبر مجموعة زنجية في أفريقيا ، وسموهم بالكفار[٣٩] ، ومن ثم قامت تجارة الرقيق الاسلامية التي هدفت الى الحصول على أكبر عدد من زنوج البانتو لتجهيز القصور بالخصيان ، وتوفير الأيدي العاملة في الاقطاعيات الزراعية[٤٠] .

ويبدو ان العرب لم يكونوا هم المؤسسون لهذه النخاسة ، بل ان افريقيا طالما كانت معيناً للعبيد منذ أقدم العصور ، كما يتضح من البقايا التي عثر عليها في قبور مصر السفلى من عصور ما قبل التاريخ ، والتي تدل على استرقاق المصريين لزنوج البوشمان . وظل المصريون والرومان وغيرهم يغيرون على مناطق افريقية للحصول على العبيد ، غير ان العرب وسعوا مبدأ تجارة الرقيق حتى شمل جميع مناطق افريقيا التي استطاعوا النفوذ اليها . والحق ان العرب لم يقوموا هم أنفسهم باصطياد الزنج بل كانوا يغرون رؤساء العشائر الزنجية بالبضائع والسلع فيقدمون لهم العبيد ، أو كانوا

يتدخلون في النزاع بين عشيرتين زنجيتين فينالون حصة من الأسرى[٤١] .

كانت مركب المسلمين تقصد بلاد الزنج حتى تصل الى بربري والحبشة وجزيرة قنبلو في بحر الزنج ، وقد برع البحارة العمانيون من الازد في ملاحة هذا البحر الذي دعاه المسلمون بالبحر الحبشي فيصلون الى بلاد سفالة قرب Beira الحالية وهي اقصى بلاد الزنج[٤٢] . وقد سافر المسعودي من عُمان مع جماعة من الملاحين فقصد بلاد الزنج ، كما ركب مرة أخرى من جزيرة قنبلو سنة ٣٠٤هـ الى مدينة عُمان[٤٣] . ان بلاد الزنج في رأي الجغرافيين المسلمين تمتد من أعلى نهر النيل حتى سفالة ، ويقول المسعودي[٤٤] ، ان الزنج شيدوا مملكة وأقاموا على رأسها ملكاً لقبوه «لوقليمن» ، واشتهر بلادهم بانتاج العاج الذي كان يصدره التجار الى البلدان الاسلامية ، أما طعامهم ـ في بلادهم الأصلية ـ فيتكون من الذرة والموز واللحم والعسل ، على أن بينهم جماعة كانت من أكلة لحوم البشر[٤٥] . ويذكر الباحثون المسلمون عدة طوائف أو شعوب زنجية نميز منها : قنبلة أو قنبلو نسبة الى هذه الجزيرة الواقعة غير بعيد عن الساحل الأفريقي والتي حفلت بالمسلمين آنذاك ، ولنجويه والمكين والمسكون وبربرا ونمل وكلاب والمريسية والقرماطيين[٤٦] .

يبدو ان الزنج جلبوا الى العراق منذ القرن الأول الهجري بدليل ثورتهم في فرات البصرة أيام مصعب بن الزُبير ، ومع أن عددهم كان ضئيلاً آنذاك فإنهم احتلوا المزارع واستولوا على أثمارها عنوة مما يدل على أنهم كانوا في حالة اجتماعية سيئة . غير ان عدد الزنج ما لبث ان ازداد بحيث انزعج أهل البصرة منهم وشكوهم الى الوالي خالد بن عبدالله القسري ففرقهم وقتل جماعة منهم[٤٧] . وفي عام ٧٥هـ (٦٩٤م) قام الزنج بحركة منظمة ـ الى حد

ما ـ ونصبوا لهم زعيماً يدعى رباح ولقبوه « شير زنجي » أي أسد الزنج[٤٨] ، ويبدو أنهم استغلوا سوء الأحوال الداخلية في العراق وانشغال الحجاج بقمع الثورات فنالوا بضع انتصارات على الجيوش الأموية ، لكن الهزيمة لحقت بهم سنة ٧٥هـ [٤٩] . وفي القرن الثاني الهجري ـ وفي سنة ١٣٣هـ على وجه الدقة ـ نجد الزنج يكونون عنصراً هاماً في الجيش العباسي ، ولما ولي يحيى بن محد الموصل كانت معه جماعة كبيرة منهم « فلما فعل ما فعل في الإسراف في قتل الرجال والنساء والأولاد قبح الزنج في اغتصاب النساء ، فاعترضت يحيى امرأة وعيرته بتسليم المسلمات الى الزنج فأثر فيه كلامها وجمعهم للعطاء ، فلما اجتمعوا أمر بهم فقتلهم عن آخرهم ، ولم يكن للزنج شوكة في ذلك العهد »[٥٠] .

لقد شهد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أعظم حركة قام بها الزنج في وجوه أسيادهم مطالبين بتحسين أوضاعهم الاجتماعية ، وسنرى ان اعدادهم كانت ضخمة حتى بلغت قواتهم ثلاثمائة ألف محارب[٥١] ، فما هي العوامل التي أدت الى تضخم عدد الزنج في العراق الأدنى إلى هذا الحد ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تقودنا إلى بحث نظام الزراعة في القرن الثالث وقيام الاقطاع الذي تطلب تسخير أفواج العبيد لاصلاح الأراضي وزرعها ما داموا يمثلون أرخص أنواع الأيدي العاملة .

اذا كان الرسول ومن تلاه من الخلفاء الراشدين قد اقطعوا الأراضي بعض المسلمين فانما كان ذلك في وجوه تبررها المصلحة العامة ، ونجد منذ صدر الاسلام فريقاً من الصحابة يستغلون بعض الأراضي ويدفعون عنها الخراج أمثال عبدالله بن مسعود والحسين بن علي[٥٢] . والاقطاع هو أن يجعل الخليفة رقبة الأرض لشخص من الاشخاص فيصبح مالكها ومستغلها[٥٣] . وقد تعددت أنواع الاقطاعات فكان هناك اقطاع التمليك أو احياء الموات

الذي لا يمكن أن يورث ، واقطاع الاستغلال الذي يمنح لرجال الجيش والذي لا يمكن أن يورث ؛ هذا من ناحية الحقوق النظرية التي تصاحب الاقطاع ، أما من الناحية العملية فنجد اقطاعات مدنية تمنح للموظفين بدل الرواتب ، واقطاعات خاصة تمنح الى أفراد أدوا خدمات خاصة للخليفة ، فضلاً عن أنواع أخرى تميّز بها القرن الرابع الهجري هي ضياع الخليفة والاقطاعات العسكرية[٥٤] . ويعرف أبو يوسف[٥٥] القطائع من أرض العراق بأنها كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد . وقد أقطع عمر بن الخطاب ما استصفاه من أراضي الساسانيين لجماعة من المسلمين «لأن هذا بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللإمام أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي فيه»[٥٦] .

ان الذي يهمنا من أنواع الاقطاع هو «احياء الموات» ، وكانت القاعدة الفقهية التي استندت الى حديث أثر عن الرسول وهو «من أحيا أرضاً مواتا فهي له» قد أدت الى نتيجة هامة ، هي ان ذوي اليسار استولوا على أراضي شاسعة أصبحت ملكاً لهم بمجرد ان قاموا باحيائها ، أي بمجرد أن يحفروا فيها بئراً أو يشقوا قناة ولا يترتب عليهم من الالتزامات سوى دفع العُشر[٥٧] ، ويبدو ان هذا الاقطاع يخول صاحبه أن يَزرعه ويُزارِعَهُ ويؤجره ويكري أنهاره ، بل أنه يورثه ولا يستطيع أحد أن ينتزعه منه[٥٨] . ولعل خير مثل على هذا النوع من الاقطاع هي الأراضي المحيطة بالبصرة ، التي تخربت نتيجة انبثاق البثوق والفيضانات المتكررة فتصدى لاستصلاحها الأغنياء والملاكون الكبار مستخدمين اعداداً هائلة من الرقيق الأسود الذي جلبه النخاسون الى العراق الأدنى على النحو الذي مر بنا[٥٩] .

ان التطور الاقتصادي الذي شهده القرن الثالث الهجري بانتقال المجتمع

العباسي من الزراعة الضيقة الى الزراعة الواسعة والتجارة الرابحة أدى الى قيام طبقة من أصحاب الثروات العريضة والأراضي الواسعة بجانب طبقة كبيرة جداً من الفقراء المعدمين ، وقد أدى هذا التباين الاجتماعي الواضح الى تصادم عبرت عنه الآداب المعاصرة ، وقد زاد الهوة السحيقة بين الأغنياء والمعدمين ، ما زخر به هذا العصر من الدعايات الفكرية والاجتماعية التي أشعرت العامة بسوء أحوالهم ، فكان لا بد أن يحصل ما حصل من الانفجار الذي عبرت عنه ثورات الزنج والقرامطة وغيرها .

كانت النظرة السائدة للزنج نظرة الازدراء والاحتقار ، وقد عبر الجاحظ عن نظرة معاصريه اليهم بقوله :[٦٠] «وقد علمنا ان الزنج اقصر الناس مدة وروية ، واذهلهم عن معرفة العاقبة ، فلو كان سخاؤهم انما هو لكلال حدهم ونقص عقولهم وقلة معرفتهم...» ومن الأمثلة السائرة آنذاك : «ان العبد إذا جاع نام واذا شبع زنى[٦١]» . ولكي نقدر قيمة الزنج الاجتماعية نذكرعلى سبيل المثال ان أثمانهم كانت أقل بكثير من اثمان العبيد البيض ، فثمن العبد في عُمان كان يتراوح بين ٣٠ ـ ٣٥ ديناراً[٦٢] ، على حين كان ثمن العبد الأبيض يصل الى آلاف الدنانير[٦٣] .

امتاز الزنج بالسذاجة والبساطة والشجاعة والجلد والصبر على العمل الشاق ، لذلك نظم التجار الحملات لاصطيادهم من جهات أفريقيا الشرقية للعمل في الأراضي السبخة المحيطة بالبصرة . كذلك وصفوا بطلاقة اللسان وفصاحة الكلام[٦٤] ، غير انهم «عيروا بصغر عقولهم وضعف ذكائهم وقلة علمهم»[٦٥] . وقد دافع عنهم الجاحظ دفاعاً حاراً في الرسالة التي سماها «فخر السودان على البيضان» فأدار على لسانهم هذا القول : «قالوا ـ أي الزنج في ردهم على البيض ـ وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وانما

رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها وأوديتها ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا وليس لأهل قنبلة جمال ولا عقول ، وقنبلة اسم الموضع الذي ترقون فيه سفنكم الى ساحله . لأن الزنج ضربان قنبلة ولنجوبة كما أن العرب ضربان قحطان وعدنان . وانتم لم تروا من أهل لنجوبة أحداً قط لا من السواحل ولا من أهل الجوف . ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال (فإن قلتم) كيف ونحن لم نر زنجياً قط له عقل صبي أو امرأة (قلنا) لكم ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوماً لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتى تطلبون ذلك فيما سقط اليكم من الزنج... »[٦٦] ان هذه الرسالة التي ألفها الجاحظ ليوفق بين السود والبيض ، والتي عبر فيها عن وجهات النظر في القرن الثالث لتدل دلالة بينة على مركز الزنج الاجتماعي وما تعرضوا له من السخرية والازدراء .

كان العمل الذي سخر فيه الزنج في المناطق الواقعة في القسم الأدنى من دجلة والفرات ، وهي منطقة المستنقعات التي تسمى البطيحة ، عملاً شاقاً بالبردي والحلفاء بؤرة للاوبئة والأمراض ، ومن ثم تعرض سكانها لأحوال صحية غاية في السوء . يقول المقدسي[٦٧] في وصف البطائح «والبطائح نعوذ بالله منها ومن شاهدها في الصيف رأى العجب... وثم بق له حمة كالابرة» . ولا شك ان هذا البق كان عاملاً في نشر الملاريا ، وما زالت أهوار العراق حتى اليوم بؤرة لهذا الوباء . واذا رجعنا الى المراجع المعاصرة نجد أمثلة على ما كان يقاسيه الزنج في تلك المناطق الموبوءة ، فقد أصيب علي بن أبان من قواد الزنج بالملاريا خلال الحرب سنة ٢٥٧ ، وفي سنة ٢٥٨ «وقع وباء في الناس في كور دجلة فهلك كثير في بغداد وسامراء وواسط وغيرها »[٦٨] . وفي نفس السنة أصاب جيش الزنج في البطيحة وباء فتك بالجند من جراء خوضهم المياه[٦٩] . واذا علمنا أن العبيد لم يعيشوا في

بيوت تقيهم البرد والحر ، وانهم كانوا ينامون في العراء أو في أكواخ من النباتات والطين ، كما هو الحال اليوم في أهوار العراق ، أدركنا أية ظروف سيئة كانوا يعشيون فيها .

كان العمل الرئيسي الذي استخدم فيه الزنج هو ازالة الطبقة الملحية ـ السباخ ـ التي تغطي الأراضي واظهار التربة الخصبة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله في أكوام أو تلال للافادة منه في الوقت نفسه(٧٠) . وكانت « كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان في انهار البصرة منهم عشرات ألوف يعذبون بهذه الخدمة »(٧١) . وكان الزنج في عملهم هذا معرضين لرقابة صارمة واهانات مستمرة . وكانوا يعملون في كتل ضخمة يتراوح عدد الواحد منها بين ٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ شغيل ، بل قد يزيد عدد العصابة الواحدة عن هذا الحد ، فقد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشتغل على نهر دجيل الأهواز(٧٢) خمسة عشر ألف غلام(٧٣) . ومما يدل على ضخامة اعداد الزنج ما ترويه المراجع من أن صاحب الزنج استطاع أن يضم اليه في يوم واحد عدداً يتجاوز الألف ، بل ان جيش الزنج بلغ فيما بعد ثلاثمائة ألف مقاتل(٧٤) . ومهما تكن هذه الأرقام مبالغاً فيها فيبدوللباحث في أحداث حركة الزنج أنهم كانوا يبلغون عشرات الآلاف بدليل أنهم دوخوا الدولة العباسية وهزموا كثيراً من جيوشها الضخمة وشغلوها نحوا من أربع عشرة سنة .

كانت كل عصابة من عصابات الزنج تعمل على بقعة معينة من الأرض نستطيع أن نعتبرها اقطاعاً لشخصية بارزة أو مالك كبير ، وكانوا من ثم أقرب الى عبيد الأرض الاقنان Serfs الذين عرفهم النظام الاقطاعي في أوربا في العصور

الوسطى ، غير أنه اذا كان القن الأوربي يرتبط بسيده الأقطاعي بالتزامات معينة وله حقوق خاصة ، فان العبيد الزنج جردوا من كل حق واعتبروا ملكاً لسيدهم ، له حق التصرف بهم كيفما شاء باعتبارهم جزء من ثروته . ان الشريعة الاسلامية كما مر بنا قاومت اغتصاب الأرض ، غير ان الرغبة في أعمار الإراضي البور واستصلاح الاقطاعيات الكبيرة التي ظلت شاغرة بعد الفتح اما لأنها كانت ملكاً للامبراطورية ، أو لأن أصحابها هجروها ، دعت الخلفاء الى منح الأراضي الى الشخصيات البارزة فزرعوها بمساعدة العبيد وأصبحت ملكاً خاصاً لهم بمجرد حفر بئر أو شق قناة ، ما دام الماء هو الذي يحي الأرض الموات . ان هذا النوع من الاقتصاد الزراعي يتعارض تمام المعارضة مع الشريعة التي لم تسمح باستغلال الأرض الا عن طريق صاحبها أو عن طريق المؤاجرة . ومن ثم فقد أدت غلطة الخلفاء في ايجاد الاقطاعيات الكبيرة التي استغلها أولو الحظوة استغلالا بشعاً الى عدم توازن واضح في الانتاج من ناحية والى قلق اجتماعي شهد نتائجه القرن الثالث وما بعده[٧٥] .

ولكي يضمن الملاك الكبار سير العمل في اقطاعياتهم الواسعة ، خاصة وقد كان أغلبهم يعيش بعيداً عنها ، أوكلوا الاشراف على زراعتها ومراقبة العبيد العاملين فيها الى وكلاء كانوا يمثلونهم وينوبون عنهم . وهكذا نجد ان الاتصال لم يكن مباشراً بين العبيد وسادتهم ، بل كان يتم عن طريق هؤلاء الوكلاء الذين تمدنا المراجع المعاصرة ببعض المعلومات عنهم ، فنجد يحيى بن يحيى الزبيري مولى الزياديين ، وكان رئيس وكلاء الهاشميين في قرية الجعفرية من قرى البصرة ، ويبدو ان الهاشميين امتلكوا اقطاعيات واسعة تزج بمجموع العبيد[٧٦] . كذلك كان للمعلى بن ايوب قرية واسعة ينظم العمل فيها جماعة من الوكلاء ، وكان عبدالله المعروف بكريخا من الملاك الكبار ، على حين نجد جماعة من الشورجيين ـ الذين سيأتي الحديث

عنهم ـ يمتلكون خمسة عشر ألف غلام ، ومن هؤلاء الشورجيين بلبل الذي جهز جيشاً من أربعة آلاف لحرب الزنج في بداية الحركة[٧٧] . ويلاحظ الباحث ان علاقة الوكلاء بالعبيد كانت أشد ما تكون العلاقة بين السيد والمسود كراهية وحقداً ، ويبدو ان الوكلاء كانوا يسومونهم عسفاً ويستخدمون معهم أشد الاساليب قسوة ونكراً .

كانت حالة الزنج اذن سيئة الى أقصى الحدود ، فقد كان أكثرهم «عبيداً لدهاقين البصرة وبناتهم»[٧٨] أي انهم كانوا يعملون في الحقول وفي البيوت لخدمة الحريم . ومما زاد في سوء حالتهم الاجتماعية والنفسية ، انهم لم يكونوا على هيئة أسر مكونة من آباء وأمهات وأبناء ، بل كانوا «على هيئة الشطار عزاباً»[٧٩] أي انهم ابعدوا عن أسرهم في وطنهم الأصلي وحرموا نعمة الاستقرار العائلي وزرعوا في بيئة غريبة عنهم ، دون أن تربطهم أية رابطة من التعاطف والتآلف والانسجام مع سادتهم أو من كان ينوب عنهم . وما اظن احداً ينكر قيمة العامل العاطفي والجنسي في زيادة نقمتهم وتذمرهم . ويتضح الكبت الجنسي الذي قاساه هؤلاء العبيد من الاعمال التي ارتكبوها خلال غاراتهم على المدن والقرى في تعرضهم للنساء ، وهذا بطبيعة الحال رد فعل لأوضاعهم الاجتماعية وانعكاس لحرمانهم الجنسي من ناحية ، وتفسره الاوضاع السائدة وروح العصر من ناحية ثانية .

وعلى الرغم من ان الزنج كانوا يعملون تحت هذه الظروف القاسية من عمل شاق ورقابة صارمة ومعاملة جائرة وحرمان متصل ، فان جزاءهم لم يكن معقولاً على الاطلاق ، بل انهم ـ ما داموا عبيداً مستملكين ـ لم يكونوايتقاضون اجراً على الاطلاق ، سوى ما كان يوزع عليهم يومياً من الغذاء الزهيد المكون من شيء من الدقيق والتمر[٨٠] والسويق . وهناك

اشارات الى ما كان يقاسيه العبيد من الجوع على الرغم من ثروات أسيادهم الطائلة ، فقد كان زبيدة بن حميد ، الذي قدرت ثروته بمائة ألف دينار في القرن الثالث ، يضرب غلمانه الجياع ، وقد عبر رئيس الغلمان عن حالتهم بقوله : اننا نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس[٨١] . لقد كان السادة أذكياء حقاً فانهم اختاروا لعبيدهم أرخص أنواع الطعام وأشدها املاء للمعدة في وقت معاً ، فاذا علمنا ان التمر كان وما زال من الأغذية المتوفرة في منطقة البصرة وانه لا يكلف نقوداً باعتباره انتاجاً محلياً زائداً عن حاجة الاستهلاك المحلي والخارجي معاً ، وان السويق لم يكن بالطعام المشبع الصحي ، أدركنا أية أدوات رخيصة للانتاج حصل عليها ملاك العبيد في نواحي البصرة . وقد وصف الجاحظ السويق : بأنه «من عُدد المسافر ، وطعام العجلان وغذاء المتكره ، وبلغة المريض... »[٨٢] كذلك وصفه ابن البيطار بقوله : «السويقان سويق الحنطة وسويق الشعير وهما جميعاً ينفخان ويبطئان النزول عن المعدة »[٨٣] . فمن هذه المعلومات نجد ان السويق الذي كان يصنع من طحين الحنطة أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر[٨٤] ، كان وجبة غير جيدة وغير كافية ، وما زالت معروفة شائعة بين السود في البصرة حتى يومنا هذا وأظنهم ورثوها عن اسلافهم .

لقد اهتم علي بن محمد ـ صاحب الزنج ـ بالمستوى المعاشي للزنج اهتماماً كبيراً ، وجعله الوتر الحساس الذي أخذ يضرب عليه ببراعة فيستجيب له العبيد ، بل لقد كان ادراك علي بن محمد لما كان يقاسيه الزنج من انخفاض مستوى المعيشة ، واتخاذه هذه الناحية نقطة البدء في دعوته ، دليلاً قوياً على فهمه العميق للاحوال السائدة وشاهداً على واقعيته التي سنتحدث عنها في الفصل التالي . ومن ثم نجد صاحب الزنج يسأل أحد الغلمان المكلفين بحمل المؤن الى العبيد «عن أخبار غلمان الشورجيين ،

وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر »[٨٥] .

ولعل أكبر برهان على سوء احوال الزنج الاجتماعية اقبالهم على أول من دعاهم الى الثورة اقبالاً منقطع النظير . وقد امتلأوا بالسرور والحماس حين بذل لهم الوعود المغرية ، وأخبرهم انه لم يخرج لعرض من اعراض الدنيا « وما خرج الا غضباً للّه ، ولما رأى عليه الناس من الفساد في الدين »[٨٦] . ثم افضى اليهم ببرنامجه الضخم في هذه العبارة التي اقتبسها المؤرخون من خطبته فيهم يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥ : انه كان يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأحوال[٨٧] . وهل كان يطمع هؤلاء المنكودون بأكثر من هذه المغريات ؟

أصناف الثوار:

لقد أجملنا في الصفحات السالفة أحوال الزنج الاجتماعية بصورة عامة ، غير انه يجدر بنا أن نلاحظ بأن لفظة « الزنج » اطلقت على اصناف مختلفة من العبيد السود الذين كانوا عامة الثوار في حركة علي بن محمد . وقد اختلفت هذه الاصناف أو الطوائف في طبيعة العمل التي قامت به كل منها ، أو الجنس أو البقعة التي تنتمي اليها . وقد اسلفنا القول ان « أرض الزنج » تعبير فضفاض واسع أطلقه العرب على مساحات شاسعة في افريقيا ، لذلك أريد هنا أن اقسم « الزنج » الى هذه الأصناف لكي ألقي ضوء على الإصطلاحات الغامضة ـ الى حد كبير ـ التي ترد في المراجع المعاصرة ، مع العلم ان جميع هذه الطوائف خضعت لظروف متشابهة في عملها في فرات البصرة ، وان اختلف نوع العمل بالنسبة للجماعات المختلفة . وأزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول ان العبيد المجلوبين من النوبة أو زنجبار أو الصومال أو

غير هذه من الأقاليم الأفريقية ، وان اختلفوا في تكوينهم الجنسي أو الجسماني في بلادهم الأصلية ، لكنهم عاشوا في العراق الأدنى تحت ظروف الرق والعمل في زراعة الاقطاعيات الواسعة ، فوحدت بينهم جميعاً ظروف حياتهم المشتركة . بل نحن نجد بين الزنج عبيداً أو انصاف احرار من البيض ، الذين اندمجوا كل الاندماج في « ثورة الزنج » مدفوعين بنفس الحوافز هادفين الى عين الأهداف ما دام ما كانوا يقاسونه هو ذات ما قاساه العبيد السود أنفسهم . وبعد فقد استطعت أن أصنف الثوار في حركة الزنج الى الأصناف التالية :

١ ــ **غلمان الشورجيين** : أو الشورجية . والكلمة ـ كما يقول الاستاذ ماسنيون[٨٨] ـ مشتقة من « شوره »[٨٩] وتعني الملح ، وهو لفظ فارسي يستعمل في عُمان أيضاً . واذا رجعنا الى ابن البيطار[٩٠] وجدناه يُعَرّفُ الشورج بقوله : « هي شيء يتولد من البحر وهو جنس من الزبد ويتولد على المواضع الصخرية القريبة من البحر وله قوة مثل الملح... انما هو شبيه بالزهرة أو الزبد يرتفع فوق الملح وهو ألطف من الملح بكثير... ويعرف الاستاذ دوزي الشورج في قاموسه[٩١] : بأن أصلها شوره وهي ملح الدباغين . ومهما يكن فان الشورج نوع من الاملاح تغطي أراضي العراق الأدنى السبخة ، تلك الأراضي التي طالما غمرتها المياه ثم انحسرت عنها بفعل تراجع البحر أو التصريف .

ويطلق لفظ الشورجيين على جماعة من أصحاب العمل كانوا يجمعون الشورج لينتفعوا به ، مستخدمين اعداداً ضخمة من العبيد هم الذين تدعوهم المراجع « غلمان الشورجيين » مع العلم ان هؤلاء العبيد كانوا يضمون بين صفوفهم بعض الأحرار[٩٢] . ويبدو ان عدد غلمان الشورجيين هؤلاء كان

ضخما ، ونجد عصابة منهم عند نهر الأمير ـ من أنهار البصرة ـ بلغت ستمائة[٩٣] . واشتهر من كبار الشورجيين رجل يدعى العطار[٩٤] . وكان هؤلاء العمال يجمعون الشورج ـ أو الملح أو السباخ ـ فيجعلونه في أكوام كبيرة مستخدمين البغال في حمله[٩٥] ، وهذه العملية تؤدي الى اظهار التربة الصالحة للزراعة بعد ازالة الطبقة الملحية ، ويبدو ان العمل كان شاقاً لأن المعاصرين وصفوا أكوام السباخ التي « كسحها » الزنج بأنها كانت كالجبال ، وان عشرات الألوف من العبيد كانوا يقومون بهذا المجهود في مناطق البصرة[٩٦] .

٢ ـ **القرماطيون** : وهم جنس من أجناس السودان الكثيرة ، وكانوا ـ على حد قول المقدسي[٩٧] ـ يتعاملون في بلادهم بالملح . ويستطرد هذا الجغرافي العربي في وصف بلادهم قائلاً « وأما أرض السودان فانها تتاخم هذا الأقليم (المغرب) ومصر من قبل الجنوب ، وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة ، وهم أجناس كثيرة... أما القرماطيون فتعاملهم بالملح والنوبة والحبش بالثياب... »[٩٨] . وكان القرماطيون ـ وهم طائفة من الزنج ـ يعملون بالشورج كذلك ، واشتهر منهم راشد القرمطي الذي كان له دور بارز في ثورة الزنج[٩٩] . وكانوا يتكلمون اللغة العربية ، اما لطول اقامتهم في منطقة البصرة واختلاطهم بأهلها من العرب ، أو بسبب قرب بلادهم من المواطن العربية في افريقيا .

٣ ـ **الفراتية** : وهم ـ كما يدل اللفظ ـ الزنج الذين سكنوا في منطقة فرات البصرة . ويعرف ياقوت فرات البصرة بأنه « كورة بهمن بن اردشير وهي كورة واسعة بين واسط والبصرة ، والبصرة منها »[١٠٠] وقد فتح هذه الكورة عتبة بن غزوان أيام عمر بن الخطاب أثناء فتوحه للبصرة[١٠١] . ومن

الجدير بالذكر ان صاحب الزنج ظهر أول ما ظهر في فرات البصرة حيث يعمل عشرات الآلاف من العبيد وانصاف الأحرار .

٤ ـ **النوبة** : هم العبيد المجلوبون من بلاد النوبة ، وكانوا هم والفراتية من أخطر قوات صاحب الزنج ، وكانوا بدورهم يتكلمون العربية[١٠٢] .

٥ ـ **الزنوج الأنقياء** : كانت الجماعات السالفة الذكر قد عاشت مدة طويلة في العراق الأدنى واكتسبت بعض الخصائص المحلية وتعلمت اللغة العربية بحكم اختلاطها بالعرب ، أما هؤلاء فكانوا زنوجاً انقياء يجهلون العربية ، لذلك كان صاحب الزنج يستخدم مترجمين للتفاهم معهم ، وأظن ان هؤلاء كانوا حديثي عهد بالرق ولم تمر عليهم فترة طويلة تتيح لهم أن يتعلموا العربية .

٦ ـ نجد علاوة على الزنج الذين كانوا يشتغلون بإزالة الطبقة الملحية جماعات تعمل لحساب التمارين والدباسين ، ويذكر الطبري شبل سالم الذي كان من غلمان الدباسين ، ويشير الى جماعات أخرى من غلمان «التمارين والدباسن»[١٠٣] . ومما هو جدير بالذكر ان التمور ومنتجاتها ـ كالدبس ـ كانت وما زالت تكون خصيصة أساسية من خصائص الحياة الاقتصادية في البصرة . وكانت أشجار النخيل في منطقة البصرة تعد بالملايين ، وقد أحصيت مئات الأصناف من التمور[١٠٤] ، ومن ثم اعتمد الملاكون على التمور اعتماداً كبيراً كمورد هائل من موارد ربحهم ، وشغلوا العبيد في أعمال التمر واستخراج الدبس .

لم يكن الزنج على درجة عالية من الثقافة ، بل كانت أغلبيتهم الساحقة جهلاء لا يحسنون حتى النطق بالعربية . ذلك ان ظروف الزنج الاجتماعية وأعمالهم في الخلاء حرمتهم من فرصة تعلم هذه اللغة وعلومها ، على الرغم

من أن الزنجي الشرقي سرعان ما يهجر لغته الأصلية ويتعلق بلغة سيده[١٠٥] ، لذلك استعان صاحب الزنج ـ كما أسلفنا ـ بمترجمين ينقلون خطبه وأقواله الى اتباعه . وحين ألقى خطبته فيهم يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ «أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لافهم له من عجمهم لتطيب بذلك أنفسهم...»[١٠٦] ومن المترجمين الذين اعتمد عليهم صاحب الزنج في هذه المهمة رجل يدعى مصلحاً ، وقد دعاه ذات يوم فميز الزنج الأنقياء من الفراتية ثم أمره أن يعلمهم بانه لن يردهم الى أسيادهم ومواليم مهما كلفه الأمر[١٠٧] .

الا أن فريقاً آخر من الزنج كانوا على درجة ضئيلة من المعرفة باللغة العربية والدين الاسلامي ، وهم الفراتيون والقرماطيون والنوبة ، لذلك كان علي بن محمد يتصل بهم رأساً دون حاجة الى مترجمين . وهؤلاء ـ وبخاصة النوبة ـ كانوا في الأصل من سكان الأقطار الأفريقية الشمالية المجاورة لمصر . غير انه على الرغم من انخفاض المستوى الفكري للزنج ، فان الدعايات الدينية والاجتماعية التي زخر بها القرن الثالث من ناحية ، واتصالهم بالدين الاسلامي الذي يعتنقه أسيادهم من ناحية ثانية ، كل ذلك أقنعهم بحقهم في التمتع بالعدالة الاجتماعية التي نادى بها الاسلام الأول ، ومن الجائز جداً أن يكون لمسلمي عبادان المجاورة أثر على أفكارهم ومعتقداتهم[١٠٨] ، سيما وقد اشتهرت عبادان بأنها مركز ثقافي ينسب اليه نفر من رواة الحديث وجماعة من الزهاد والمحدثين[١٠٩] . بل أن البصرة نفسها طالما كانت مركزاً فكرياً عظيماً ، وفيها اصطرعت شتى الفلسفات والمعتقدات والآراء . ومهما يكن من أمر فان سوء أحوال الزنج الاجتماعية كان كافياً لاثارتهم وجذبهم نحو أية حركة بمجرد أن تؤكد هذه الحركة على تحسين أوضاعهم ، والمسألة في الواقع ليست مسألة ثقافية انما مسألة وعي

قد يتأتى عن طريق الاثارة في الواقع والايماء بمجهود جد بسيط . والواقع ان صاحب الزنج ـ كما سنرى ـ لم يجهد نفسه في وضع برنامج شامل دقيق ، وكل ما فعل أنه وعد العبيد البؤساء بوضع حد لبؤسهم ورفعهم الى مستوى اجتماعي أعلى .

ملاحظات ومراجع الفصل الأول

(١) شفيق : الرق في الاسلام ص١٦ .

(٢) Bury, History of Greece, PP., 71-72

(٣) Robinson, History of Europe, P., 215

(٤) Cambridge Ancient History, Vol., IX, PP., 11-16

(٥) Cary, A History of Rome, P., 309.

(٦) Cambridge anc. Hist., vol. IX, PP., 329-32 Cary, P., 365

(٧) Fisher, a History of Europe, P., 1028

(٨) Encyclopaedia of the Socil Sciences, vol. 14, P., 78.

(٩) Thompson, History of the middle Ages, P., 267.

(١٠) شفيق : الرق في الاسلام ص٣٤ .

(١١) Fisher, P. 1029.

(١٢) راجع القانون الأسود في لويزيانا والقوانين السوداء الخاصة بانكلترة وفرنسا .

(١٣) زيدان : التمدن الاسلامي ج٤ ص٤٦ .

(١٤) المرجع نفسه : ج٤ ص٤٧ .

(١٥) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص٢٤٧ .

(١٦) انظر شرح البخاري للقسطلاني (بولاق سنة ١٣٠٤) ج٤ ص٣٢٠ .

(١٧) احياء العلوم : ج٢ ص١٩٩ (بولاق) ، أنظر كذلك المقريزي ج١ ص١٣٧ .

(١٨) الفتاوى الهندية : ج٦ ص١٢٥ .

(١٩) المرجع نفسه : ج٦ ص ص١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢٠) المرجع نفسه : ج٦ ص٥٨ .

(٢١) زيدان : التمدن الاسلامي ج٤ ص٤٨ .

(٢٢) الطحاوي : مختصر الطحاوي ص٣٧٧ .

(٢٣) Demombyues, P. 141.

(٢٤) Ibid. P., 141.

(٢٥) أنظر الطحاوي : ص ص٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢٦) Encyclopedia of the Social Sciences, vol. 14, P., 79.

(٢٧) مختصر الطحاوي : ص٣٨٤ .

(٢٨) المرجع نفسه : ص٣٨٥ .

(٢٩) المرجع نفسه : ص٣٩٦ .

(٣٠) المرجع نفسه : ص٣٩٧ .

(٣١) المرجع نفسه : ص٢٠٠ .

(٣٢) شفيق : الرق في الاسلام ص٩٦ .

(٣٣) Demombynes, *les institutions musulmanes*, P. 141.

أنظر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٢٣ فيما يتعلق بالخصيان وطرق إخصائهم وفيه معلومات طريفة عن هذه العملية البشعة .

(٣٤) أنظر Hutchinson, the slave Trade of East Africa. P., 20.

وما بعدها . وهو يستعرض نشأة تجارة الرقيق الأسود منذ العصور القديمة حتى العصور الحديثة .

(٣٥) زنزبار : محمية بريطانية على ساحل افريقيا الشرقي الآن . وكان هذا الساحل خاضعاً للنفوذ العربي منذ أقدم العصور ، وقد أطلق عليه العرب اسم بلاد الزنج أو أرض الزنج ، كما دعيت زنجبار .

Encyclopedia Britannica, vol. 23, PP., 934-935.

وهي مكونة من لفظتين احداهما فارسية والأخرى هندية . Zang و Bar وتعني «بلاد الرجل الأسود» أنظر :

Fitzgerald, Africa, P., 226.

(٣٦) Lane's Arabic - English Lexicon, Book I Part III, P., 1256.

(٣٧) Fitzgerald, Africa, P., 226.

(٣٨) Ibid, P., 78.

Johnston, the openieg up of Africa, P., 146.

(٣٩) Fitzgerald, Africa, PP., 79, 119.

(٤٠) Ibid, P., 79.

Johnston, P., 147.

(٤١) Ibid, P., 179.

في مواضع مختلفة

Hutchinson, slave trade.

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص٢٣٧ .

(٤٣) المرجع نفسه : ج١ ص٦٥ .
(٤٤) المرجع نفسه : ج١ ص٢٣٧ .
(٤٥) المرجع نفسه : ج١ ص٢٣٧ .
(٤٦) الجاحظ : رسالة فخر السودان على البيضان ص ص٧٢ ـ ٧٣ المسعودي ج١ ص ص٢٣٥ و٢٤٥ .
(٤٧) ابن الأثير : الكامل ج٤ ص١٨٨ .
(٤٨) المرجع نفسه : ج٤ ص١٨٨ .
(٤٩) يقول الجاحظ : كتاب فخر السودان على البيضان (مجموعة رسائل الجاحظ) ص٦٢ «غضب شيخ بن رياح شار فهجا جريرا وفخر عليه بالزنج بقوله» :
والزنج لو لاقيتهم في صفهم   لاقيت ثم جحاجحا أبطالا
فسل ابن عمرو حين رام رماحهم   أرأى رماح الزنج ثم طوالا
(٥٠) ابن الأثير : ج٥ ص١٦٧ .
(٥١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٤١ .
(٥٢) البلاذري : فتوح البلدان ص٥٢ ، أبو يوسف : الخراج ص ص٧٢ و٧٤ . كذلك أنظر البلاذري عن الاقطاع في البصرة في العصر الأموي في الفصل القيم الذي سماه «تمصير البصرة» وبخاصة في صفحتي ٣٦٨ ـ ٣٦٩ . ومن هذا الفصل نرى كيف أن زياد بن أبيه والحجاج الثقفي ومعاوية وغيرهم كانوا يقطعون أراضي البصرة لذوي الحظوة والمقربين .
(٥٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص٤٠ .
(٥٤) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٨ ـ ٣٠ .
(٥٥) أبو يوسف : الخراج ص٦٨ .
(٥٦) المرجع نفسه : ص٦٩ .
(٥٧) المرجع نفسه : ص٧٨ .
(٥٨) المرجع نفسه : ص٧٢ .
(٥٩) أنظر البلاذري عن انبثاق البثوق واستصلاح الأراضي واقطاعها ص ص٣٠٠ ـ ٣٠٢ في حديثه عن البطائح .
(٦٠) الجاحظ : البخلاء ص٢٥٣ .
(٦١) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج١ ص٢٧٨ .
(٦٢) زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٤ ص٤٨ .
(٦٣) متز : ج١ ص٢٦٦ .
(٦٤) المسعودي : مروج الذهب ج١ ص٢٤٤ .
(٦٥) رسائل الجاحظ التي نشرها فان فلوتن (الرسالة الثانية) ص ص٧٦ ـ ٧٧ .

(٦٦) رسائل الجاحظ : (مطبعة التقدم - مصر) ص ص٧٢ - ٧٣ .

(٦٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٢٥ .

(٦٨) الطبري : ج٨ ص٦ .

(٦٩) نفس المرجع : ج٨ ص٩ .

(٧٠) Massignon, Encyclopedia of Islam, Vol.4 P., 1213.

(٧١) كتاب العيون : ص٧أ (مخطوط نقلاً عن متز ج١ ص٢٧٩) .

(٧٢) دجيل : نهر بالأهواز حفره اردشير بن بابك أحد ملوك الفرس مخرجه من أصبهان ومصبه في فارس قرب عبادان .

ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٤٢ .

(٧٣) الطبري : ج٧ ص٥٤٧ .

(٧٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٤١ ، الطبري ج٨ ص٧٨ .

(٧٥) Demombynes, Les institutions Musulmanes, PP., 183-185.

(٧٦) الطبري : ج٧ ص٥٤٩ .

(٧٧) المرجع نفسه : ج٧ ص ص٥٤٧ و٥٤٨ .

(٧٨) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج٨ ص٣١١ .

(٧٩) المرجع نفسه : ج٨ ص٣١١ .

(٨٠) يقول الجاحظ (البخلاء ص٣٠٦) « ... وكان يقول (ابراهيم بن عبدالعزيز) لم أنتفع بأكل التمر قط الا مع الزنج ، وأهل أصبهان ، فأما الزنجي فانه لا يتخير وأنا أتخير » .

(٨١) البخلاء : ص٥٩ - ٦٠ .

(٨٢) نفس المرجع : ص٢٨٣ .

(٨٣) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية ج٣ ص٤٥ .

(٨٤) Dozy, supplement aux dictionnaires Arabes IB, P., 706.

(٨٥) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٢ .

(٨٦) الطبري : ج٧ ص٥٥٠ .

(٨٧) المرجع والجزء ذاتهما : ص٥٤٧ .

(٨٨) Massignon, E.I, Vol.4, P., 1213.

(٨٩) اذا رجعنا الى لسان العرب لابن منظور ج٥ وجدناه يعرف الشوره بأنها الموضع الذي تعسل فيه النحل . على حين يعرفها ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج٣ ص٧٣) بأنها شجر نابت في أقاصي البحر الحجازي...

(٩٠) مفردات الأدوية والأغذية : ج٢ ص٤٣ .

(٩١) Supplement aux dictionnaires, I B, P., 801.

(٩٢) الطبري : ج٧ ص٥٤٦ .

(٩٣) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٦٠ .

(٩٤) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٦٠ .

(٩٥) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٤٨ .

(٩٦) كتاب العيون : ص٧ أ (مخطوط نقلاً عن متز ج١ ص٢٧٩) .

(٩٧) أحسن التقاسيم : ص٢٤٢ .

(٩٨) المرجع نفسه : ص ص٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٩٩) الطبري : ج٧ ص٥٤٦ .

(١٠٠) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٣٦ .

(١٠١) البلاذري : ص٣٥٨ .

(١٠٢) الطبري : ج٧ ص٥٥٠ .

(١٠٣) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٤٦ .

(١٠٤) Noldeke, Sketches from Eastern History P., 153.

(١٠٥) الطبري : ج٧ ص٥٤٧ .

(١٠٦) نفس المرجع : ج٧ ص٥٥٠ .

(١٠٧) Massignon, E.I, Vol., 4, P. 1213.

(١٠٨) ياقوت : معجم البلدان ج٦ ص٣٠٥ .

الفصل الثاني

صاحب الزنج

« صاحب الزنج » هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على علي بن محمد الذي ظهر في فرات البصرة سنة ٢٥٥هـ فقاد الزنج في ثورتهم الكبرى التي دامت نحوا من أربع عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ = ٨٦٩ ـ ٨٨٣م) . وفي الكلام على نسب علي بن محمد يلاقي الباحث صعوبات جمة ، فهناك من يزعم أنه فارسي بل ويؤكد على فارسيته ، وهناك من يرد نسبه الى أصل عربي ، على حين نجد فريقاً آخر يسكت عن نسبه فلا يثبت هذا أو ذاك . أما الرجل نفسه فقد زعم انه علي بن محد بن احمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١] . غير ان هذا النسب الذي أدعاه علي لنفسه ما لبث أن غيره وبدله من حين الى حين ، فنسب نفسه الى يحيى بن زيد بن علي بعد اخرابه البصرة[٢] . ويقول ابن أبي الحديد[٣] : ان صاحبنا غير نسبه تبعاً للظروف فانتقل من احمد بن زيد الى احمد بن محمد بن زيد ثم الى يحيى بن زيد بن علي ، وحين شخص الى البحرين سنة ٢٤٩هـ ادعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب[٤] .

فامام الباحث مشكلتان تستحقان المناقشة : هل كان صاحب الزنج

عـربيـاً أم غـيـر عـربي ؟ ثم هل هو علوي ، أم كـان هذا النسب مـجـرد ادعاء ؟ولد علي بن محمد في قرية كبيرة تدعى ورزنين من قرى الري وبها كانت نشأته[٥] ، وهي قرية لا تبعد كثيراً عن طهران الحديثة . وكان اسمه فيما ذكر علي بن محمد بن عبدالرحيم ونسبه في قبيلة عبد القيس ، أما أمه فـقـرة بنت علي بن رجب بن محـمـد بن حكيم وهي أسـدية من أسـد بن خزيمة[٦] . وذكـر عنه أنه كـان يقـول : «جدي محـمـد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبدالملك مع زيد بن علي بن الحسين ، فلمـا قـتل زيد هرب فلحق بالري فلجأ الى ورزنين فـأقـام بهـا وان أبا أبيـه عبدالرحيم رجل من عبدالقيس كان مولده بالطالقان وانه قدم العراق فأقام بها واشـترى جـارية سندية فـأولدها محـمـدا أباه»[٧] . ونجد استـناداً الى بعض المصادر ان أسرته كانت ترجع الى البحرين ، حيث كان يعيش فرع كبير من عبدالقيس التي تنتسب إلى ربيعة منذ الجاهلية[٨] . ومما هو جدير بالذكر ان هذه القبيلة قامت بدور مهم في الغارات التي كانت تشنها القبائل العربية من البحرين على سواحل ايران أيام سـابور ذي الاكتـاف ، فلمـا شـب هذا الملك غزا البحرين ونكل بعبد القيس فيمن نكل به من القبائل العربية ، وأسكنها في هجر[٩] حيث ظلت حتى العصور الاسلامية[١٠] . واذا كانت أغلب المصادر تجمع على نسب صاحب الزنج الى عبدالقيس فان بعضها يشير اشارة غامضة الى أنه من أصل فارسي وان اسمـه «بهبوذ»[١١] . والحق ان الباحث لا يملك الا أن يؤيد نسـب علي بن محـمـد العربي ـ أو يرجـحـه ـ ما دام المؤرخـون المعـاصرون ـ وبخاصة الطبري ـ يؤكدون هذا النسـب ، ولو كـان فارسـياً حقـاً لأكد المعاصرون على هذه الناحية ، فضلاً عن أن بهبوذ هو اسم لشخص آخر من قواد هذه الثورة كما سنرى .

واذا انتقلنا الى المشكلة الثانية وجدنا المؤرخين ينكرون على علي بن

محمد نسبه العلوي ويجمعون على انه نحل هذا النسب ليضفي على حركته طابع الشرعية ، وفيما يلي بعض أقوال المؤرخين في هذا المجال : يقول أبو المحاسن[١٢] ان علياً لم يكن من العلويين بل هو دعيّ في انتسابه اليهم . ويقول ابن كثير[١٣] عن نسبة علي نفسه الى العلويين «وهو في ذلك كاذب لأن الاجماع في يحيى انه لم يعقب الا بنتاً ماتت وهي ترضع»/ ويقول صاحب الفقري[١٤] : أما نسبه فليس عند النسابين بصحيح وهم يعدونه من الادعياء . ويقول ابن أبي الحديد[١٥] : «وأكثر الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبيين وجمهور النسابين اتفقوا على أنه من عبد القيس» . ويقول المسعودي[١٦] : «وأكثر الناس يقول انه دعيّ آل أبي طالب» . ويؤكد ابن حوقل[١٧] في حديثه عن خراب البصرة ان «البرقعي» ادعى النسب العلوي ولم يكن علوياً حقاً . ويقول الاستاذ نولدكه في هذا الموضوع[١٨] ان صاحب الزنج «ادعى انه من نسل علي وفاطمة بنت الرسول ، وربما كان هذا الادعاء صحيحاً ، ذلك ان نسل علي آنذاك كانوا يعدون بالآلاف ولم تكن لهم أهمية تاريخية تذكر ، لكنه ربما كان نسبه مجرد اختراع» . أما الاستاذ ماسنيون فيقول[١٩] : «ربما كانت نسبته الى العلويين صحيحة لأن البيروني يقول[٢٠] ان الشيعة لا يزالون يحتفلون بذكراه في ٢٦ رمضان» . وقد تأتى خطأ ماسنيون من ترجمة لنص البيروني الذي رجح بدوره نسبته الى عبد القيس .

وهكذا نجد ان المراجع العربية تجرده من النسب العلوي ، ونحن لا نملك الا أن نذهب هذا المذهب لما بين ايدينا من الادلة الواضحة والشواهد البينة . ذلك ان ادعاء النسب العلوي من جانب الثائرين ـ طوال العصور الوسطى الاسلامية ـ كان امراً معتاداً متكرراً ، لأن العلويين اشتهروا بنقمتهم على السلطة القائمة واعتبارهم اياها مغتصبة جائرة ، بدليل ثوراتهم

الكثيرة طوال العصر العباسي ، كما ان الاستناد الى النسب العلوي يضفي على حركة صاحب الزنج ـ كما أسلفت ـ طابع الشرعية الذي لا بد من توافره لكي تنجح الحركة وتلقى التأييد من العامة الذين اعتقدوا أن الاصلاح لن يكون الا على يد علوية . وبين يدي ادلة أخرى لعلها أكثر قيمة سأوجلها لحين البحث في علاقة حركة الزنج بالشيعة وهو موضوع الفصل القادم .

ولد علي بن محمد كما أسلفت ـ في قرية ورزنين من قرى الري ونشأ فيها . وكان جده لامه ـ على حد قوله ـ من أهل الكوفة ومن الخارجين على الخلافة الأموية مع زيد بن علي ، وقد أقام هذا الجد في الري بعد مقتل زيد . أما جده لابيه فقد ولد بالطالقان من نواحي خراسان ثم نزح الى العراق حيث ولد محمد أبو صاحب الزنج من جارية سندية . ونحن لا نعلم شيئاً ذا غناء عن حياة صاحب الزنج الأولى لانه كان من غمار العامة ، ومن سواد الناس الذين اهملهم المؤرخون ولم يعنوا بتدوين نشأتهم . على أن المؤرخين أمدونا ببعض المعلومات عن نشاطه قبيل أن يقوم بثورته موضوع البحث ، فقالوا انه كان يعيش في سامراء عاصمة الخلافة اذ ذاك ، متصلاً ببعض خدم الخليفة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨) الذين كانوا ينعمون عليه ويمدونه بما يتعيش منه ، أمثال غانم الشطرنجي وسعيد الصغير ويسر الخادم[٢١] . وهذا يدل على أن علياً بن محمد كان فقير الحال ليس له أي نصيب من الجاه والغنى ، بل بالعكس لقد كان معوزاً فقيراً وهي ناحية هامة في حياته لانه قاسى ما قاساه أمثاله من الطبقة العامة التي كانت تعيش في العاصمة على هامش الحياة . وقد زاد من نقمة علي أنه عاش على مقربة من قصور الخلفاء وأخذ يشهد بعينيه بذخ الخلفاء والأمراء والأغنياء ، ويبصر تفسخ الحياة الاجتماعية وانحطاط الاختلاف وضعف الإدارة وتغلب المطامع ، والصراع العنيف الذي كان يدور في خفايا القصور وأبهائها من أجل الوصول الى

السلطة . ولا شك ان هؤلاء الخدم قد اوقفوه على حقيقة ما كان يجري حول عرش الخلافة المضطرب الذي كان يعبث به القواد الأتراك أشد العبث ، فأدرك الحقيقة الكبرى في تاريخ هذه الفترة ، وهي ان الخليفة لم يكن سوى لعبة بيد رجل الجيش الأجانب ، الذين أخذوا ابتداءً من هذا التاريخ يمارسون السلطة الحقيقية في الدولة .

كان علي بن محمد في هذه الفترة من حياته ينظم الشعر ويتخذه وسيلة للعيش ، فيمدح به أصحاب السلطان وكتابه ويستميحهم[٢٢] . وقد حفظت لنا بعض المراجع[٢٣] نماذج طيبة من شعره سنعرض لها بعد هذا ، كما اتخذ صاحبنا الى جانب قرض الشعر حرفة تعليم الصبيان بسامراء كوسيلة أخرى للتعيش فكان يعلمهم الخط والنحو وعلم النجوم والسحر والاصطرلابات[٢٤] .

رحل علي بن محمد من سامراء سنة ٢٤٩ الى البحرين متأثراً بما شهد وسمع في عاصمة الخلافة من فوضى واضطرابات أشد التأثر . ولعل علي بن محمد صمم على أن يفعل شيئاً منذ كان في سامراء ، غير أنه أدرك ان هذه المدينة لم تكن مركزاً صالحاً لأي عصيان ضد الخلافة بسبب الرقابة الشديدة والجاسوسية المحكمة ووجود السلطة المركزية . ولعله اختار البحرين لبعدها عن مركز الدولة من ناحية ، ولأن رابطة من النسب والقرابة تربطه بهذا الصقع من ناحية ثانية ، وربما لسبب آخر في غاية الأهمية هو أن البحرين كانت بيئة صالحة لنشر الدعايات الأجتماعية والدينية ، وقد شهدت السنين القادمة قيام جمهورية قرمطية مثالية في هذه البلاد . وقد كان علي على صواب في رحيله الى هذه الجهة لأنه لم يلبث أن كسب أعواناً مخلصين من أهل البحرين ظلوا الى جانبه حتى نهاية ثورته . ومما هو جدير بالملاحظة ان هؤلاء الأعوان الأول كانوا جميعاً من الطبقة العامة وأصحاب

الحرف والموالي ، ولعل أجدرهم بالذكر يحيى بن محمد البحراني مولى بني دارم وكان كيالاً ، ويحيى بن أبي ثعلب وكان تاجراً صغيراً ومولى أسود لبني حنظلة هو سليمان بن جامع ، ومحمد بن سلم القصاب وبريش القريعي وعلي الضراب والحسين الصيدناني وشخص مغمور كان يمارس الحجامة[٢٥] .

وفي البحرين ادعى علي أنه من آل علي ودعا الناس بهجر الى الانضمام اليه[٢٦] . وقد تبعه جماعة من أهل هجر ورفضت دعوته جماعة أخرى ، وقامت بين الفئتين فتنة سفكت فيها الدماء وأزهقت الأرواح ، فخرج الى الاحساء احدى مدن البحرين آنذاك[٢٧] بعد أن أدرك أن الأحوال في هجر لم تكن في صالحه . وقد لقى علي في الاحساءنجاحاً باهراً ، وأقام بين ظهراني بني تميم وبني سعد وهما أشد القبائل بأساً في البحرين . ويقول المؤرخون[٢٨] ان أهل البحرين «أحلوه في أنفسهم محل النبي فيما ذكر حتى جبي له الخراج هناك ونفذ حكمه بينهم» . وبعد أن بذر علي بذور حركته في هذه الجهات رحل الى البادية حيث حاول أن يجذب الى صفه الاعراب . وهناك أحاط نفسه بهالة من القدسية ، فادعى أنه أوتي الغيب وانه يستطيع اتيان الخوارق ، بل يذكر المؤرخون أنه انتحل قرآناً خاصاً به ، وان سوراً منه كانت تجري على لسانه كأنها من فعل وحي سماوي[٢٩] . ولما علم أن البادية لم تكن بالبيئة الصالحة لنشر دعوته لما تميز به البدو من النزعة الفردية وعدم انقيادهم لمثل هذه الدعوات الروحية الغامضة ، قرر أن يرحل الى البصرة وهي يومئذ مدينة كبيرة آهلة بالسكان تصطرع فيها الأفكار والنزعات الدينية ويتضح في تكوينها الاجتماعي التصادم الذي ألمحنا اليه في الفصل السابق . أما هو ففسر للمحيطين به نزوحه الى البصرة تفسيراً غيبياً روحياً ، لكي يحيط نفسه بهالة من القدسية تجذب اليه أعوانه ومؤيديه ، لذلك قال : «اني ألقيت نفسي على فراشي فجعلت أفكر في الموضع الذي أقصد له ،

فأظلتني سحابة فبرقت ورعدت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعي فخوطبت منه فقيل : اقصد البصرة[٢٠]» .

قدم علي بن محمد البصرة سنة ٢٥٤ وكان عاملها يومئذ محمد بن رجاء الحضاري ، وصادف قيام فتنة بين الفرقتين التركيتين الكبيرتين البلالية والسعدية ، فطمع أن يستميل اليه احدى الفرقتين[٢١] . وتفصيل الأمر أن أحوال البصرة كانت قد فسدت في امارة محمد بن رجاء ، وانقسم أهلها على بعضهم وتطور العداء الى اصطدام دموي مسلح داخل المدينة أدى الى طرد العامل وفتح السجون ونهب بيت المال ودور الأغنياء وبقيت هذه المدينة مسرحاً للفوضى حتى قدم اليها صاحب الزنج .

حاول علي أن يبدأ دعوته في مسجد البصرة غير أنه أخفق وطارده جند الخلافة فلاذ بالفرار الى بغداد ، غير ان الوالي قبض على أتباعه ، وعلى زوجه وابنه وابنته وجارية له ، لكن الذي أفاده علي من هذه المغامرة أنه مهد لحركته ، وبذر بذورها واطلع على أحوال البصرة السياسية والاجتماعية ، كما كسب بعض الأعوان المخلصين أمثال علي بن أبان المهلبي من ولد المهلب بن أبي صفرة وأخويه محمد والخليل[٢٢] . ومن هنا تبدأ حياة علي الحقيقية المليئة بالمغامرة والنشاط ، فبعد هربه من البصرة ، قبض عليه عامل واسط لكنه استطاع أن يفلت بالحيلة ويشخص الى بغداد حيث أقام عاماً ينتسب الى أحمد بن عيسى بن زيد[٢٣] .

ظل علي بن محمد في بغداد ينتظر الفرص المواتية ويرقب الأحوال بحذر ويتنسم أخبار البصرة حيث أهله وأعوانه . كما انه لم يقف مكتوف اليدين ،بل أخذ يدعو لنفسه بحذر ويجمع حوله أعواناً جدداً ، فاستمال جماعة أصبحوا فيما بعد من أخلص تابعيه . ولم ينس أن يحيط نفسه ببغداد

بهالة من الغموض ويغلف أقواله وتصرفاته بثوب من التصورات الروحية للسيطرة على نفوس أتباعه . فادعى أنه يعلم حقيقة ما في ضمائرهم وما يفعله كل منهم ، وانه سأل ربه آية فرأى كتاباً يكتب له وهو ينظر اليه على حائط دون أن يرى كاتبه[٢٤] . وما انتهى العام الذي قضاه في بغداد حتى وردت الأخبار تنبيء عن عزل محمد بن رجاء عدوه اللدود وقيام ثورة جديدة بين البلالية والسعدية ، وقد فتحت السجون وخرج أهله وأصحابه ، فعاد الى البصرة في رمضان سنة ٢٥٥ ، وأغلب الظن أن علياً كان له أتباع هناك يوافونه بالأخبار ، وربما كان لأعوانه ضلع في الحوادث التي وقعت في البصرة .

أقام صاحب الزنج في برنخل بين مدينة الفتح وكرخ البصرة[٢٥] ، في مكان يعرف بقصر القرشي على نهر عمود بن المنجم الذي احتفره بنو المنجم[٢٦] . وادعى انه وكيل «لولد الواثق» في بيع ما يملكونه من السباخ[٢٧] ، وأمر أصحابه أن يتظاهروا بذلك أيضاً . وواضح أنه كان يهدف الى الاتصال بالزنج المشتغلين بكسح السباخ ويدرس أحوالهم ويقوي علاقاته بهم ، بدليل أنه أخذ يسأل عن ظروف عملهم وغذائهم ، كما أخذ ـ من ناحية ثانية ـ يتحرى أخبار البصرة وأنباء النزاع بين البلالية والسعدية . وابتداء من هذا التاريخ أخذ الزنج يجتمعون حول علي بن محمد ، ويعتبر يوم الاثنين ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ (٦ أيلول ٨٦٩م) يوم قيامه بالثورة[٢٨] .

* * *

يدل مسلك علي بن محمد على انه كان ذكياً قوي الإرادة طموحاً ذا نفس وثابة نازعة نحو الآمال الكبار . وكان صبوراً هادىء التفكير يحسب لكل حركة حسابها ، ويضع كل أمر في موضعه ، وقد أدرك القوة التي تكمن

في العبيد السود ، واستطاع أن ينقلها الى مجال العمل ، كما أنه نمى في هؤلاء شعورهم بالاضطهاد فانفجر في حركة عنيفة أرعبت الدولة العباسية وتطلبت وقتاً طويلاً لكبحها وجهوداً جبارة للقضاء عليها مدى اربع عشرة سنة .

وكان علي بن محمد رجلاً مثقفاً بمفهوم عصره ، فقد كان خطيباً وشاعراً بدليل أنه كان ينظم الشعر ليتعيش من ورائه[٣٩] ، ويقول أبو بكر الصولي : ان له شعراً حسناً مطبوعاً «وزعم أبو بكر بن دريد انه عمل له أكثره ، وما أرى هذا يصح لأنه لا يشاكل على طريقة ابن دريد[٤٠]» . ويروي ابن أبي الحديد[٤١] انه كان يعلم الصبيان الخط والنحو وعلم النجوم والسحر والاصطرلابات وهي علوم عصره ، وقد عبر الشاعر يحيى بن محمد الاسلمي - أثر هزيمة الزنج - عن اعتماد علي بن محمد على التنجيم بقوله :

أين نجوم الكاذب المارق
ما كان بالطب ولا الحاذق[٤٢]

لقد أثرت عن صاحب الزنج نماذج من الشعر الحسن المطبوع الذي يدل على تمكنه من العربية . وقد جاء في كتاب ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر للقيرواني مجموعة من الشعر الجيد نسبها الى علي بن محمد[٤٣] ، كذلك روى ابن أبي الحديد له أيضاً أبياتاً لعلها خير ما يعبر عن نقمة «صاحب الزنج» على الاوضاع السائدة ، وتبرمه بما كان عليه من الفقر والفاقة ونزوعه الى المجد والسؤدد وهي :

رأيت المقام على الاقتصاد
قنوعا به ذلة في العباد





اذا النـار ضـــــــاق بـهــــــا زنـدها

فــفــســحــتــهــا في فـــراق الزناد

اذا صـــــارم قـــــر في غـــمـــــده

حــوى غــيــره الســيف يوم الجـلاد(٤٤)

وهكذا يرى علي بن محمد في القناعة والبقاء على الكفاف نوعاً من الذلة والخنوع ، وان على الانسان أن يسعى ليصل الى الغايات البعيدة . فهذه الابيات تعبر عن نفس قلقة متوثبة ثائرة كانت أبرزها ما ميز صاحبنا منذ بداية حركته حتى نهايتها .

وهو ينظر حوله فيتألم ، ويبصر كيف يحيا الخلفاء والأمراء في قصور بغداد حياة لهو وتهتك وانحلال ، فيمتلىء قلبه بالحقد ويقسم أن سيكون رسول الاصلاح ، وهادم سلطان الدولة التي وضعت مقدراتها بيد « الخصيان » .

لهف نفـــسي على قـــصـــور ببــغـــداد

ومـــا قـــد حـــوته من كل خـــاص

وخـــمـــور هناك تشـــرب جـــهـــرا

ورجـــال على المـــعـــاصي حـــراص

لسـت بابـن الفـــــواطم الزهـر ان لـم

أقــحم الخــيـل بين تلك العـــراص(٤٥)

وتبدو في مقطوعة أخرى نسبت له نزعة شيعية واضحة فهو يعتب على العباسيين ـ أبناء عمومته ـ ويدعوهم الى الكف عن اضطهاد العلويين ، ويعيب عليهم تقديمهم الأتراك وتوليتهم شؤون الحكم :

بني عـــمنا لا توقـــدوا نار فـــتنة

بطيء على مـــر الليـــالي خـــمـــودها

بـنـي عـــــــــمـنـا أنـا وأنـتـم أنـامـل
تضـمنهـا من راحـتـيـهـا عـقـودها
بني عـــمـنا وليـــتم التـــرك أمـــرنا
بـديـنـــاً وأعـــقـــاباً ونحن شـــهـــودها
فـــاقـــسم لا ذقت القـــراح وان أذق
ببلغـة عـيش أو يبـار عـمـيـدها[٤٦]

هل كان صاحب الزنج قد خرج على الدولة العباسية متألماً مما آلت اليه الامور من الفساد وانه كان يريد أن ينشر العدل ويحقق العدالة الاجتماعية ، أو أنه ـ كما زعم المؤرخون ـ كان طموحاً نزوعاً الى المجد ؟ ان الذي يصل اليه الباحث في حركته أنه كان مخلصاً للدعوة التي تبناها ، وقد عرضت له فرص عديدة كان يستطيع أن يثري عن طريقها لكنه عزف عنها . فقد روى المؤرخون[٤٧] ان رميساً أحد قواد العباسيين أرسل الى صاحب الزنج يمنحه الأمان وخمسة دنانير عن كل رأس من العبيد الذين معه اذا ردهم الى مواليهم لكنه رفض الطلب بإباء ، فاذا علمنا أن أعداد العبيد كانت ضخمة جداً ، أدركنا أية ثروة عريضة كان يستطيع أن يجنيها لو كان نهازاً للفرص طالباً للمنفعة الشخصية . وحين شك الزنج في حقيقة هذه المفاوضات واضطربوا ، حلف لهم أنه لم يخرج لعرض من أعراض الدنيا وقال لهم معاهداً «ها انذا معكم في كل حرب اشرككم فيها بيدي وأخاطر معكم فيها بنفسي[٤٨]» .

على ان الباحث يجد ان المؤرخين اسبغوا على علي شتى عبارات السوء وكالوا له صنوف الشتائم . فهو الدعي والخبيث واللعين والخارج على الدين وعدو الله والمسلمين . وقد نسبت اليه المراجع من الآثام وأعمال القسوة

الشيء الكثير ، واتهم بأنه نهاب قاطع طريق ما يكاد يفتح قرية أو مدينة حتى يأمر بانتهابها[٤٩] ، ونسب الطبري الى ريحان ـ أحد أصحاب علي بن محمد ـ هذا الخبر «ولقد وقعت يدي ويده ـ أي صاحب الزنج ـ على جبة صوف مغربة فصار بعضها في يده وبعضها في يدي وجعل يجاذبني عليها حتى تركتها[٥٠]» . كذلك قيل أنه كان «يقتل الصغير والكبير والذكر والأنثى ويخرب[٥١]» . أما ابن أبي الحديد فيطعنه في دينه ويرميه بالزندقة والإلحاد[٥٢] ، وهي تهمة غامضة ألصقت بكل خارج على النظام القائم .

ونحن وقد بعدت الشقة بيننا وبين ذلك العصر ، علينا أن ننظر الى هذه الأقوال نظرة شك وحذر ، اذ لم يكن معقولاً أو متوقعاً أن يشيد المعاصرون بصاحب الزنج أو يمتدحوه ، بل كان متوقعاً منهم أن يحطوا من قدره ما دام خارجاً على النظام السائد وثائراً على الدولة صاحبة الحول والقوة . غير أن هؤلاء المؤرخين أنفسهم ذكروا أموراً تدل على النبل والترفع وتناقض ما ألصقوه به من العبث والفساد . فحين قتل أحد أهالي قرية القادسية أحد الزنج ، غضب هؤلاء وطلبوا الى زعيمهم أن ينتهبوا القرية وينتقموا من القاتل ، غير أنه استنكر ذلك قائلا : «لا سبيل الى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم ، وهل فعل القاتل ما فعل عند رأيهم ونسألهم أن يدفعوه الينا ، فان فعلوا والا ساغ لنا قتالهم[٥٣]» . وحين نكث أهل قرية الجعفرية بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن يقفوا على الحياد في حرب الزنج ، ودخل هؤلاء القرية يريدون الانتقام نادى بهم زعيمهم «ألا برئت الذمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية أو سبى منها احداً ، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة[٥٤]» .

على اننا لا نستطيع أن نبرىء صاحب الزنج واتباعه مما ارتكبوه من

أعمال القسوة التي نسبها اليهم المؤرخون ، فما من شك أنهم دمروا المدن ونهبوا القرى وقتلوا الرجال وسبوا النساء واسترقوهن(٥٥) ، غير ان هذه الأعمال يبررها أمران ، أولهما ان الزنج كانوا في حالة حرب سافرة وقد وقفت الدولة وملاك الأراضي وأهل المدن ضدهم وحاربوهم بكل قواهم ، فكان لا بد أن يلجأ الزنج بدورهم الى كل وسيلة تتيح لهم أن ينتقموا من اعدائهم ويضعفوا من قوتهم ، وثانيهما ان روح العصر تبرر ما كان يجري من أعمال القسوة والعنف في الحروب ، وما أظن أحداً يستطيع الادعاء بأن النزعات الانسانية كانت ذات وجود في أية حرب أو ثورة شهدتها العصور الوسطى سواء كان ذلك في الشرق أم في الغرب . لقد كانت أعمال القسوة والتعذيب والتشهير والتمثيل تجري في المعسكرين : معسكر الزنج ، ومعسكر العباسيين ، غير ان هناك كثيراً من الشواهد ـ وقد ذكرنا بعضها ـ تدلل على أن صاحب الزنج كان يقصد بها اعداءه وحدهم ، وانه طالما وقف موقفاً نبيلاً من الابرياء والمحايدين كما فعل في قريتي القادسية والجعفرية .

مراجع وملاحظات الفصل الثاني

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص٢١ ، المسعودي : ج٢ ص٤٣٩ ، تاريخ الوردي ج٦ ص٢٣٢ .

(٢) الطبري : ج٧ ص٦٠٧ ، ابن الأثير ج٧ ص٩٧ .

(٣) شرح نهج البلاغة : ج٨ ص٣١٨ .

(٤) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ .

(٥) ابن الأثير : ج٧ ص١٣٩ .

(٦) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١١ .

(٧) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ .

(٨) البلاذري : ص٨٥ .

(٩) الطبري : ج١ ص٤٩١ .

(١٠) البلاذري : ص٨٥ .

(١١) ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص٦٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٤٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص٤٨ .

(١٢) المرجع نفسه : ج٣ ص٢١ .

(١٣) البداية والنهاية : ج١١ ص٢٩ .

(١٤) الفخري في الآداب السلطانية : ص١٨٣ .

(١٥) شرح نهج البلاغة : ج٨ ص٣١١ .

(١٦) مروج الذهب : ج٢ ص٤٣٩ .

(١٧) صورة الأرض ج١ ص٢٣٧ .

(١٨) Noldeke PP., 146--47.

(١٩) Encyclopedia of Islam, Vol. IV, 1213.

(٢٠) يقول البيروني في الكلام على أعياد المسلمين «في السادس والعشرين من رمضان خرج البرقعي بالبصرة وذكر أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقيل أنه كان علي بن محمد بن عبدالرحيم بن عبد القيس . وحكى أن الحسن بن

زيد صاحب طبرستان كتب اليه حين ظهر بالبصرة يسأله عن نسبه ليعرف له حقه فأجابه ليعنك من أمري ما عناني من أمرك والسلام» .

الآثار الباقية عن القرون الخالية ص٣٣٢ .

(٢١) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج١ ص٢٣٣ .

(٢٢) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ ، ابن الوردي ج١ ص٢٣٣ .

(٢٣) القيرواني : ذيل زهر الآداب ص١٥٤ .

(٢٤) شرح نهج البلاغة : ج٨ ص٣١١ .

يقول الطبري (ج٧ ص٥٤٤) ان صاحب الزنج أخذ اصطرلابا من مشرق فقاس به الشمس ونظر في الوقت قبل أن يشن هجوماً وقال (ج٧ ص٥٦٣) ان صاحب الزنج كانت معه كتب واصطرلابات .

(٢٥) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ ، ٥٤٨ .

(٢٦) نفس المرجع : ج٧ ص٥٤٣ ، ابن كثير ج١١ ص١٩ .

(٢٧) انظر ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٣٧ .

(٢٨) الطبري : ج٧ ص٥٤٣ .

(٢٩) ابن أبي الحديد ج٨ ص٣١٥ .

(٣٠) البداية والنهاية : ج١١ ص١٩ .

(٣١) المرجع نفسه : ج١١ ص١٩ .

(٣٢) شرح نهج البلاغة : ج٨ ص٣١٢ ، انظر البلاذري ص٣٦٨ عن آل المهلب بالبصرة .

(٣٣) الطبري : ج٧ ص٥٤٥ .

(٣٤) البداية والنهاية : ج١١ ص١٩ .

(٣٥) مروج الذهب : ج٢ ص٤٣٩ .

(٣٦) تسمية الأنهار في البصرة باسم الذين احتفروها كانت شائعة في البصرة . الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٩ ، انظر البلاذري ص٣٥٤ ـ ٣٨٠ عن خطط البصرة وأنهارها .

(٣٧) Noldeke, P., 149.

(٣٨) البيروني : الآثار الباقية ص٢٣٢ .

(٣٩) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١١ .

(٤٠) القيرواني : ذيل زهر الآداب ص١٥٤ .

(٤١) ج٨ ص٣١١ .

(٤٢) الطبري : ج٨ ص١٤٥ .

(٤٣) انظر ذيل زهر الآداب .

(٤٤) ج٨ ص٣١١ .

(٤٥) ذيل زهر الآداب ص١٥٤ .

(٤٦) الطبري : ج٧ ص٥٥٠ .

(٤٧) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٥١ .

(٤٨) الطبري : ج٧ ص٥٥٣ .

(٤٩) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٩٩ .

(٥٠) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٤٤٦ .

(٥١) ج٨ ص٣١١ .

(٥٢) الطبري : ج٧ ص٥٤٨ .

(٥٣) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٥١ .

(٥٤) المرجع نفسه : ج٨ ص٨١ .

الفصل الثالث

ثورة الزنج
طبيعتها وأسسها العقائدية

طبيعة ثورة الزنج:

ان البحث في طبيعة ثورة الزنج ، ومحاولة الوصول الى آراء قاطعة عن مبادئها وبرنامجها أمر على جانب كبير من الصعوبة ، لأن آراء المؤرخين تتضارب بشدة من ناحية ، ولأن المعلومات في هذا المجال جد شحيحة من ناحية ، فضلاً عن أن كثيراً من الاحكام التي أصدرها المؤرخون المسلمون عن هذه الثورة ـ شأنهم في أية حركة ضد الخلافة ـ تتميز بطابع التحامل والتحيز . لقد أفاض المؤرخون في الحديث عن ثورة الزنج من وجهتها العسكرية فأمدونا بأدق التفاصيل وأتفهها عن المعارك التي دارت بين الزنج والجيوش العباسية ، الى درجة ان الباحث يجد نفسه مضطراً الى اغفال واهمال الكثير من هذه التفاصيل غير المجدية في كثير من الاحيان ، فاذا انتقل الى دراسة الأسس الفكرية والاجتماعية لثورة الزنج ، وجد ان الطريق شائك والسبيل وعر ، فعليه ان يلجأ الى جمع الاشارات العابرة من هنا وهناك لتكوين فكرة واضحة عن هذا الموضوع .

اننا نهدف في هذا الفصل الى القاء ضوء على جملة قضايا ما زالت

غامضة غير مدروسة ، فعلينا أن ندرس طبيعة «ثورة الزنج» ونقرر فيما اذا كانت ذات برنامج يهدف الى اصلاح شامل للنظام الاجتماعي القائم ، أم كانت مجرد حركة ضيقة ترمي الى تحسين أحوال طبقة اجتماعية معينة . وعلينا كذلك ان نحدد علاقة هذه الثورة بالشيعة من ناحية وبالخوارج من ناحية ثانية وبالقرامطة من ناحية ثالثة .

ادعى صاحب الزنج النسب العلوي كما أسلفنا ليضفي على نفسه طابعاً روحياً ويكسب حركته سنداً شرعياً ، ذلك ان الناس اعتقدوا آنذاك بأن تغيير النظم القائمة لن يتم الا على يد علوية تتصل بأهل البيت ، وبهذا النسب يستطيع علي بن محمد أن يجذب اليه العامة ويجمع حوله الأنصار . ويمكن القول ان هذا العصر ـ النصف الثاني من القرن الثالث ـ شهد اوج انتشار الدعوة الشيعية ورواجها ، فحوالي هذا الوقت كان الصفارون يلعبون دوراً كبيراً في تقوية المذهب الشيعي في بلاد فارس ، في الوقت الذي نشأت دولة شيعية في طبرستان الممتدة بين جبال ألبرز وساحل بحر قزوين الجنوبي تحت حكم الحسن بن زيد العلوي[1] ، وفي الوقت الذي راجت فيه الدعاية الاسماعيلية وانبث القرامطة ينشرون مبادئهم المتطرفة في صفوف العامة تحت رداء من العقائد الشيعية . كل ذلك طبع اذهان الناس باعتقاد مؤداه ان الاصلاح المنشود سيتم على يد العلويين ما داموا حملوا لواءالمعارضة ضد الدولة ردحاً طويلاً من الزمن . فاذا فهمنا هذه الحقيقة أدركنا لم استند صاحب الزنج الى أسس روحية من هذا النمط .

ولم تكن حركة الزنج الحركة الوحيدة التي استندت الى ادعاءات دينية في التاريخ الاسلامي ، بل يصح القول ان جميع الحركات الاجتماعية التي سبقتها وتلتها ـ طوال العصور الوسطى ـ اتخذت الدين ستاراً لها يحجب

أهدافها الاجتماعية . وثمة حقيقة كبرى في التاريخ الاسلامي الوسيط ، هي ان الدين لم ينفصل عن السياسة بل ضلا يسيران جنباً الى جنب . ذلك ان الخليفة كان يجمع في يديه السلطتين الروحية والزمنية ، على عكس ما نجد في الغرب ابان العصور الوسطى ، حيث كانت السلطة الروحية بيد البابا والزمنية بيد الامبراطور ، ومن هنا لا يستطيع الباحث في تاريخ المجتمع الاسلامي أن يفصل ما هو ديني عما هو دنيوي . وهذا هو السر في أن الخليفة بقى يتمتع بمكانة عظيمة في قلوب المسلمين ، حتى يوم اشتط الخلفاء في انحرافهم عن جادة الدين وعن الاخلاق القويمة ، لأنه ـ على الرغم من كل شيء ـ اعتبر منفذ الشريعة الاسلامية وممثلاً للرسول ومفسراً للقرآن والسنة . ان هذه الحقيقة أدت الى نتيجتين هامتين ، اولاهما : ان كل حركة قامت في التاريخ الاسلامي ـ مهما كان نصيبها من الحق والصواب ـ وصمت بأنها زيغ وزندقة وخروج على الدين والدولة ، وثانيهما : ان الحركة ـ أية حركة ـ لم يكن يقدر لها النجاح ما لم تستند الى حجة دينية شرعية تبرر قيامها ضد النظام القائم . وينطبق هذا القول على حركات الشيعة والخوارج والاسماعيلية والقرامطة والزنج وغيرها . لقد كانت هذه الحركات جميعها ذات اهداف وغايات وأسس اجتماعية ، لكنها اتخذت الدين ستاراً لها لكي تبرر برامجها في نظر الجماهير . ومن هنا عبرت ثورة الزنج عن روح العصر أشد التعبير ، ذلك العصر الذي امتلأ بالدعايات الاجتماعية المتسترة باسم العدالة الدينية الداعية الى اعادة الشريعة الى ما كانت عليه ، مع انها لم تكن في الواقع سوى تأكيد على ضرورة تحسين احوال الطبقات العامة ، وبتعبير آخر محاولة لتغيير النظام السائد .

ان الحركات التي تشابه ثورة الزنج في الدافع والهدف والطبيعة العامة كثيرة لا حصر لها ، ففي العصر الأموي استطاع المختار الثقفي أن يستغل

فرصة الاضطراب الداخلي فيكسب نجاحاً ملحوظاً بموجب الادعاءات الدينية مستنداً الى تأييد الطبقات العامة ـ وبخاصة الموالي ـ في الكوفة حيث بلغ التشيّع أقصاه(٢) ، وحيث كان السادة العرب ينظرون الى هؤلاء في شيء كثير من الازدراء ، ولم يرضوا أن يشاركوهم في ثمرات ما يفتحونه من البلدان(٣) . واذا شئنا الاستطراد وجدنا أن ثورة الحارث بن سريج في خراسان كانت من ذات الطابع ، فقد استغل هذا الرجل الورع تذمر الطبقات العامة فاشعل نار ثورة عنيفة في السنوات الأخيرة من الحكم الأموي ، وطَبَعَ حركته بطابع روحي ـ كالعادة ـ فزعم انه المهدي المنتظر الذي هيأه اللّه ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ونادى بضرورة الرجوع الى القرآن والسنة وانتخاب حكومة ترضى عنها غالبية المسلمين(٤) . واذا حاول الباحث ان يستقصي الثورات التي قامت ضد الأمويين والعباسيين ، وجد انها كانت كثيرة جداً وانها جميعاً استندت الى صبغة دينية تغلف اهدافها الحقيقية ، مع العلم ان هذه الثورات ازدادت شدة وعنفاً منذ منتصف القرن الثالث الهجري(٥) .

فالخاصية الأولى في ثورة الزنج اذن ، انها دعت الى تحسين احوال العبيد ومعاملتهم ـ كما أمر الرسول ـ بالرفق والحسنى والعمل على تحريرهم بأية وسيلة كانت . والحق ان صاحب الزنج ادرك بعمق انه ـ لكي يلاقي النجاح في حركته ـ يجب ان يستند الى مبدأ شرعي مقبول ، ومن ثم نادى بتطبيق التعاليم الاسلامية الأولى التي أوصت بالعبيد خيراً ، وقد عبر عن هذه الحقيقة حين خاطب اسياد العبيد ووكلاءهم قائلاً : «قد أردت ضرب اعناقكم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان ـ يعني الزنج ـ الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرم اللّه عليكم أن تفعلوه بهم وجعلتم عليهم ما لا يطيقون(٦)...» ، وما من شك في انه كان يشير الى ما

ورد في القرآن والسنة من الآيات والأحاديث التي حثت على تحسين أحوال العبيد ، وقد أوردنا طرفاً منها في الفصل الأول .

لقد درس صاحب الزنج التنجيم وما يتصل به من التنبؤ والسحر و«الاصطرلابات[٧]» ، لأن العامة ـ آنذاك ـ بل وحتى اليوم يؤمنون أشد الايمان بهذه التصورات ويعتقدون ان المرء يستطيع أن يكشف عن الغيب بهذه الطرق الغيبية ، وان للنجوم أشد الأثر على مصائر البشر . وهكذا ادعى صاحب الزنج ان جميع تصرفاته من حل وترحال وحرب وغزو انما كانت تلبية لهاتف خفي أو وحي سماوي . فقد كان يتنبأ بخسوف القمر فيصدقه اتباعه[٨] ، ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال انه لما أراد دخول البصرة سنة ٢٥٧هـ «نظر في حساب النجوم ووقف على انكساف القمر... وقال : اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة وابتهلت الى اللّه في تعجيل خرابها فخوطبت فقيل لي ان البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها فاذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة ، فأولت انكسار نصف الرغيف انكساف القمر المتوقع في هذه الأيام»[٩] . ويرى المؤرخون أنه كان يزعم لأصحابه بأنه يعرف ما في الغيب وأن الملائكة كانت تنصره وتشد أزره ، وقد زعم مرة أنه رأى في احدى مواقعه العصيبة طيوراً بيضاء تحارب اعداءه[١٠] ، وفي مناسبة أخرى قال : «دعوت على اهل البصرة... واجتهدت في الدعاء ، وسجدت وجعلت أدعوا في سجودي فرفعت الى البصرة فرأيتها ورأيت أصحابي يقاتلون فيها ورأيت بين السماء رالأرض رجلاً واقفاً في الهواء... قد خفض يده اليسرى ورفع يده اليمنى يريد قلب البصرة بأهلها ، فعلمت ان الملائكة تولت اخرابها دون اصحابي... وان الملائكة لتنصرني وتؤيدني في حربي[١١]...» . وهكذا تشبه صاحب الزنج ـ ان صح ما قاله عنه المؤرخون ـ بالانبياء لكي يضفي على نفسه طابعاً روحياً جذاباً .

لقد روى ابن أبي الحديد ان أهل البحرين أحلوا صاحب الزنج من أنفسهم محل النبي حتى جبي له الخراج هناك ، ويقال كذلك أن يهودياً خبيراً يدعي مانذويه جاء صاحب الزنج يوما فقبل يده وسجد له ثم سأله عن مسائل كثيرة فأجابه عنها ، فزعم هذا اليهودي انه يجد صفته ـ أي صفة صاحب الزنج ـ في التوراة بعد أن تبين علامات خاصة في بدنه(١٢) ، فاذا صح هذا النص ـ ولا يبعد أن يكون مجرد تهمة الصقت بصاحب الزنج ـ فمعنى ذلك ان علياً بن محمد قلد الأنبياء في كل شيء واستفاد من الاسرائيليات التي طالما لقيت رواجاً في البيئة الاسلامية . ويتهم ابن الجوزي(١٣) صاحب الزنج بأنه انتحل النبوة والرسالة وادعى العلم بالغيب ، ويستطرد قائلاً ان أبا أحمد الموفق دعا غريمه الى التوبة من انتحاله «ما لم يجعله اللّه له اهلاً من النبوة والرسالة» ، على حين ينفي الطبري صفة النبوة عن صاحب الزنج ويروي (١٤) أنه قال «لقد عرضت عليّ النبوة فأبيتها لأن لها أعباء لا أطيق حملها» ، ومن ثم اكتفى بالامامة لأنها ـ على حد قوله ـ أخف حملاً وأقل عبئاً . ومهما يكن من أمر فان النصوص التي بين ايدينا تظهر بوضوح الى أي حد استند صاحب الزنج الى الادعاءات الدينية والتصورات الغيبية وهو أمر لا مفر منه في العصور الوسطى .

قلنا ان ثورة الزنج هي ثورة العبيد الافريقيين في البصرة وما حولها ضد أسيادهم سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩م) . وهذه الثورة ذات طرافة كبيرة من ناحية طابعها ، وذات أهمية تاريخية بالنسبة لتأثيرها في تاريخ ذلك العصر . واذا أخذنا بنظر الاعتبار ان ذلك العصر قد شهد احداثاً اجتماعية وفكرية وسياسية هائلة ، وان الخلافة العباسية كانت ـ وهي في حالة تفككها ـ تكافح ما تمخض عنه العصرمن أحداث كفاح المستميت ، أدركنا أي جهد بذلته الخلافة لايقاف هذا التيار الجارف من السخط الاجتماعي الذي لم تكن ثورة

الزنج سوى رافد من روافده . أجل لقد كانت ثورة الزنج مجرد حلقة في هذه السلسلة المتصلة من الحركات التي عبرت عن القلق الاجتماعي من ناحية ، وعن عدم صلاحية النظم القائمة من ناحية ثانية ، وعن دخول المجتمع الاسلامي في مرحلة جديدة من التطور الاقتصادي والاجتماعي من ناحية ثالثة .

كانت ثورة الزنج حرباً اجتماعية ذات طابع طبقي ، أي أنها ثورة طبقة العبيد وانصاف العبيد ضد الملاكين من أصحاب الأراضي ، وهي على غرار ما شهدته روما من ثورات الرقيق في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد[١٥] ، وعلى غرار ما نجده في التاريخ الحديث من حركات الطبقات المضطهدة ضد مضطهديها ، مثال ذلك الحركة التي تزعمها توسين لوفيرتور في هايتي (١٧٩٤ ـ ١٨٠١)[١٦] ، والعصيان الذي أثاره العمال الهنود في الناتال بزعامة غاندي (١٩٠٦ ـ ١٩١٣)[١٧] . بل ما زلنا نجد حتى اليوم حركات مماثلة اينما قام استغلال للجنس البشري على أساس غير مشروع .

يعتقد البعض[١٨] ان ثورة الزنج كانت حرباً بين الاجناس ـ بين السود والبيض ـ أما أنا فأخالف هذا الرأي ، واعتقد انها كانت حرباً بين طبقة العبيد وانصاف العبيد والفلاحين والاعراب الساخطين على النظام القائم من جهة وبين مالكي الأرض وأصحاب العبيد والخلافة من جهة أخرى . ويؤيد هذا الرأي اننا نجد في جيش الزنج جماعات كبيرة من غير السود كالاعراب وأهل القرى والعمال واصحاب الحرف ، بل ان الاعراب تعاونوا مع الزنج تعاوناً وثيقاً وكانوا أداة فعالة في تزويد الجيش الزنجي بالمؤن طوال هذه الثورة .

نجد في الخطبة التي ألقاها علي بن محمد على العبيد يوم عيد الفطر

سنة ٢٥٥هـ ، الأصول التي استند اليها برنامج حركته ، والأهداف التي رمى الى تحقيقها . فقد ذكر ما كان عليه الزنج من الأحوال الاجتماعية السيئة ، وبشرهم بأنه الرسول الذي هيأه الله لإنقاذهم ، ووعدهم بأنه كان يريد أن يرفع اقدارهم ، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل[١٩] . فالواضح من هذه الخطبة ان صاحب الزنج لم يقصد الى هدم العبودية كلية ، بل الى تحرير الزنج أنفسهم فحسب . وقد بَرَّ علي بن محمد بوعده فكان يحرر العبيد الذين انضموا اليه جملة كلما قصد الى مكان أو فتح مدينة أو قرية ، لكنه ـ من ناحية ثانية ـ استرق أعداءه وعاملهم معاملة العبيد سواء بسواء . فقد ذكر المسعودي[٢٠] ان عسكر صاحب الزنج « كان ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة... لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون... » . ويروي هذا المؤرخ كذلك حادثة مؤادها ان امرأة علوية كانت لدى أحد الزنج ، فسألت صاحب الزنج أن ينقلها الى غيره أو يعتقها فعنفها قائلاً : « هو مولاك وأولى بك من غيره[٢١] » . ومهما انطوت عليه هذه الأقوال من التحامل الظاهر فإنه يجب أن نقرر بأن حركة الزنج لم تعمل على إزالة الرق ، بل حررت الزنج وحدهم واعتبرت اعداءهم أسرى حرب تحق عليهم العبودية . ويقال ان أبا أحمد الموفق وجد آلاف الأسرى في سجون «المختارة» عاصمة الزنج حين استطاع احتلالها[٢٢] .

ولعل الباحث يستطيع أن يجد كل العذر لصاحب الزنج اذا تذكر أنه كان في حالة حرب مع طبقات المجتمع الأخرى من غير العبيد ، وانه اينما التفت وجد اعداء له ولحركته ، فلم يجد بداً من استرقاق اعدائه ليأمن شرهم ويضعف همتهم ويظهر بمظهر القوة والغلبة أمامهم . واذا أمعنا النظر في

الثورات قديماً وحديثاً وجدنا ان الهول والرعب وسفك الدماء أمر يتصل بطبيعتها ، ويكفي أن نتذكر ان الثورة الفرنسية - وهي التي قامت على مبادىء الأخاء والحرية والمساواة - صاحبها كثير من الارهاب وسفك الدماء والتنكيل بالأعداء بشكل أو بآخر . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية اعتنق صاحب الزنج مذهب الخوارج الازارقة[٢٣] - كما سنرى - وهؤلاء يبيحون استرقاق اعدائهم من المسلمين وقتل أطفالهم ونسائهم باعتبارهم كفاراً مارقين .

ومهما يكن من أمر فالباحث لا يملك الا أن يعترف بأن حركة الزنج كانت محدودة لا تنطوي على برنامج اجتماعي شامل ، وانها - كما تدل خطبة صاحب الزنج - لم تهدف الى الغاء العبودية كلية . كما انها لم تحاول انشاء نوع من الاشتراكية كما يعتقد نظام الملك الذي يقول[٢٤] : ان مبادىء صاحب الزنج هي نفس مبادىء مزدك[٢٥] . ان المزدكية دعت الى احقاق المساواة بين الناس واعتبار الأموال ملكاً مشاعاً بينهم ، ولم تكن ثورة الزنج تدعو الى مثل هذا أو الى شيء منه ، بل كانت رد فعل عنيف لما قاساه العبيد من الاضطهاد الاجتماعي ، ومحاولة ايجابية للانتقام من سادتهم حتى ولو استدعى ذلك جر الأسياد الى العبودية . ومن هنا كانت الثورة موجهة في بدايتها ضد ملاك الأراضي وملاك العبيد ، لذلك وقف هؤلاء الملاك في وجهها وقاوموها أشد المقاومة . ولم تتدخل الدولة أول الأمر لقمعها بل تركت أهل البصرة أنفسهم يعالجون الموقف ، حتى اذا ما يئس هؤلاء من صد تيار الزنج العنيف كتبوا الى الخليفة يطلبون منه التدخل ، وعندها فقط أرسل قائده جعلان التركي على رأس جيش نظامي[٢٦] . والحق ان ملاك العبيد بذلوا جهوداً عظيمة لإيقاف ثورة الزنج واستخدموا وسائل الإغراء مع علي بن محمد فعرضوا عليه الأموال الطائلة اذا ارجع اليهم غلمانهم[٢٧] ،

كذلك عرض على علي بن محمد خمسة دنانير عن كل رأس من العبيد اذا ردهم الى مواليهم فرفض هذا الطلب بشدة[٢٨] مؤكداً انه لم يخرج لعرض من أعراض الدنيا ، بل غضبا لله ولما رأى عليه الناس من الفساد في الدين[٢٩] . غير ان الثورة ما لبثت ان استرعت انتباه الخلافة العباسية لما لاقته من النجاح من جهة ولإلحاح أهل البصرة على الخليفة في ضرورة التدخل من جهة أخرى .

لقد انطوت ثورة الزنج على خسارة كبيرة لملاك الأراضي وأصحاب العبيد ، لأن قوام ربحهم وكيانهم المادي انما كانا يقومان على تسخير اعداد العبيد الضخمة في الزراعة واصلاح الأراضي بإزالة الطبقة الملحية عنها ، وذلك دون مقابل يذكر . فذهاب هؤلاء العبيد يعني خسران أدوات الانتاج الرخيصة ، وتعريض الاقطاعيات الزراعية للخراب . ومن هنا اتسمت الحرب بين الزنج والملاكين بالحقد والعنف واستمرت دون هوادة مدة أربع عشرة سنة . ان استمرار حركة الزنج طوال هذه المدة أثر تأثيراً سيئاً على اقتصاديات العراق الأدنى ، لأن غارات الزنج على البصرة وواسط والأهواز والمناطق المجاورة أدت بطبيعة الحال الى شلل الزراعة وعرقلة التجارة . لقد استطاع الزنج أن يحتلوا بين عامي ٢٥٥ ـ ٢٥٦ مدناً كبيرة الأهمية كالابلة وعبادان وجبى وفرضوا سلطانهم على مصب دجلة ، واستولوا على مقاطعات زراعية شاسعة ، فأثر كل ذلك على بغداد نفسها ، حيث انقطع اتصالها بالعراق الأدنى مما ألحق بالتجارة خسارة فادحة[٣٠] ، وكلما اعاد قواد العباسيين هذه المواصلات قطعها الزنج من جديد ، حتى ان السفن النهرية لم تستطع السير في شط العرب مدة عشر سنوات ٢٥٥ ـ ٢٦٥[٣١] . واذا علمنا ان البصرة كانت ميناء العراق الوحيد وعليها اعتمدت تجارة العباسيين الصادرة والواردة أدركنا أية خسارة فادحة تعرضت لها الدولة بعد دخول الزنج هذه المدينة ،

واستطعنا أن نعلل الحماس الخارق الذي بذله أبو أحمد الموفق في حربهم .

لقد كانت ثورة الزنج أول حركة تمخض عنها الوضع الاجتماعي الجديد في القرن الثالث ، ويبدو أنها كانت الشرارة التي أشعلت نار الأفكار الكامنة ، فلم تلبث السنون القادمة أن شهدت حركات أخرى مشابهة في الدافع والهدف مثل حركة القرامطة . والحق أنه في الوقت الذي كانت حركة الزنج تجري أحداثها الدامية في الساحة الممتدة بين البصرة وواسط ، كان القرامطة ـ وهم فرع من الاسماعيلية ـ ينشرون دعوتهم بين سكان جنوبي العراق من العرب والانباط وجلهم من الفلاحين والصناع . وانه وان لم يقم تعاون بين صاحب الزنج وحمدان قرمط ـ كما سنرى ـ فإن ثورة الزنج مهدت التربة لكي ينشر القرامطة دعوتهم على نطاق واسع ، لأن الدعوتين وان اختلفتا في الاسلوب والبرنامج اتفقتا في ضرورة تغيير النظام القائم .

ان من أهم أسباب اخفاق هذه الحركة انها كانت حركة طبقية ضيقة لا تنطوي على برنامج شامل وأسس فكرية ثابتة ، فكان نجاحها رهيناً ببقاء زعيمها وحماس أتباعه العبيد من ناحية ، وبضعف الخلافة وانشغالها من ناحية أخرى . ومن هنا لم تستطع هذه الدعوة أن تجذب الأحرار من أهل البصرة على نطاق واسع ، وان انضم الى صفوفها جماعات من الاعراب وأهل القرى . ولا شك أن عداء الأحرار من الطبقة الوسطى لحركة الزنج تفسره المصلحة الشخصية ، لأن تحرير العبيد يعني بالنسبة لهم خسارة مادية كبيرة كما أسلفنا .

الأسس العقائدية لثورة الزنج:

يجمع أغلب المؤرخين على أن صاحب الزنج لم يكن علوياً بل ادعى النسب العلوي ليضفي على ثورته طابعاً شرعياً يبررها في نظر العامة ،

وهكذا أنكر الطبري وابن أبي الحديد وأبو المحاسن والمسعودي وابن كثير وابن الطقطقي صحة نسبه العلوي وجزموا بنسبته الى قبيلة عبدالقيس[٣٢] . غير ان هناك من ذهب الى القول بصحة نسب صاحب الزنج الى العلويين ومنهم الملطي والبيروني ، واريد أن اناقش هنا آراء هذين المؤرخين .

يقول الملطي[٣٣] في معرض كلامه على الشيعة الامامية « ... والفرقة الثامنة عشرة هم الزيدية أصحاب زيد بن علي رضي الله عنهما وهم أربع فرق ، فالأول من الزيدية أعظمهم قولاً (غلواً) وهم الذين يكفرون الصدر الأول وسائر من ينشأ (منهم) أبدا اذا خالفهم ويرون السيف والسبي واستهلاك الأموال وقتل الأطفال واستحلال الفروج وليس في الامامية أكثر ضرراً منهم في الناس ، وانما هو بعد ما يخرج الواحد منهم يضع السيف والحريق والنهب والسبي ولا يقصرون ولا يرعون وكان منهم علي بن محمد صاحب البصرة سبى العلويات والهاشميات والعربيات وباعهن مكشفات الرؤوس بدرهم ودرهمين... واستباح دماء المسلمين وأموالهم ، وأهرق الدماء وقتل الأطفال وأحرق المصاحف والمساجد بتأول أنهم مشركون ، وكان يقول (لا يلدوا الا فاجراً كفاراً) . وكان يستحل كل ما حرم الله» . ونلاحظ على هذا النص جملة ملاحظات هي :

١ ـ في الكلام على صاحب الزنج نجد أن الشطر الأول من نص الملطي من قوله «وكان منهم علي بن محمد...» حتى قوله «وقتل الأطفال...» يتفق مع ما أورده جميع المؤرخين في وصف أعمال صاحب الزنج ، بل أن أقوال المسعودي في هذا الباب تطابق أقوال الملطي تماماً . يقول المسعودي[٣٤] في وصف معسكر الزنج « كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم... تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة...» وهي

تهمة ألصقها جميع المؤرخين بحركة الزنج ، ولا ندري نصيبها من الصحة ، لأن الذين أرخوا الثورات الفكرية والاجتماعية في الاسلام كانوا يعبرون عن وجهة النظر الرسمية ، معتبرين هذه الثورات خروجاً على الدولة ومن ثم فهي خروج على الدين . ويتهم الملطي صاحب الزنج بأنه «كان يستحل كل ما حرم الله» ، وفي سيرة علي بن محمد ما يدحض هذا القول ، فطالما منع أصحابه من الغارة على القرى الآمنة ما دامت تقف على الحياد ، كما انه حرم الخمرة على أتباعه[٢٥] . ويؤيد هذا الرأي أبن كثير الذي ذكر أن صاحب الزنج لم يكن «يتعرض لأموال الناس ولا يؤذي أحداً انما كان يريد أخذ أموال السلطان»[٢٦] .

٢ ـ يقول الملطي ان صاحب الزنج أحرق المصاحف والمساجد ، على حين لم تذكر المراجع المعاصرة شيئاً من هذا القبيل ، ولو كان علي فعل ذلك حقاً لما تردد المؤرخون الآخرون في ذكر هذه الحقيقة واتخاذها منفذاً للهجوم عليه . كما ان قول الملطي يتعارض مع أهداف صاحب الزنج الذي ادعى أنه كان يريد الرجوع الى الشرع واحياء تعاليم القرآن والسنة ، بل أننا نجد أن شعار صاحب الزنج كان آيات من القرآن سجلها على رايته ونقشها على نقوده كهذه الآية (ان الله اشترى من المؤمنين... الآية)[٢٧] .

٣ ـ يرى الملطي أن عليا بن محمد من الشيعة الزيدية ، ويبدو أن الملطي أخذ ادعاء علي بن محمد النسب العلوي على أنه أمر واقع فالصق بهذه الفرقة ما نسب الى الزنج . ويجدر بنا أن نشير الى أن تصرفات صاحب الزنج تجاه العلويين لم تكن توحي بأنه منهم ، فقد ذكر البيروني[٢٨] أن الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان كتب اليه حين ظهر بالبصرة يسأله عن نسبه ليعرف له حقه فأجابه : «ليعنك من أمري ما عناني من أمرك

والسلام» . وهو جواب ينطوي على التملص بلا شك . كذلك يذكر أبو المحاسن[٣٩] : أن الزنج قتلوا علياً بن زيد العلوي صاحب الكوفة ، مما يدل على عدم وجود العطف والتعاون بين علي بن محمدوالعلويين .

ويذكر البيروني[٤٠] أن الشيعة يحتفلون في السادس والعشرين من رمضان بخروج البرقعي بالبصرة ، وهو موعد ثورة الزنج سنة ٢٥٥ غير أن هذا المؤرخ يعود فيشك في صحة نسب صاحب الزنج الى العلويين ويرجح أنه من عبدالقيس .

نخرج من هذا الى أن صاحب الزنج ادعى النسب العلوي ليكتسب صفة شرعية من ناحية ولكي يجذب اليه العامة من ناحية ثانية ، الا أنه عاد فنبذ مبادىء الشيعة لأنها لم تحقق بغيته . فعقيدة الشيعة تقوم على مبدأ الوراثة ووجوب حصر الامامة في آل علي ، والزيدية منهم تدعو الى امامة من خرج من آل علي يدعو الى الكتاب والسنة ويدعو الى الجهاد[٤١] ، ولعل علياً بن محمد أراد أن يفيد من هذا المبدأ ليستحق لقب الامامة .

ان عقيدة الشيعة في حصر الامامة في آل علي بالنص الجلي[٤٢] ، لم تكن تلائم الزنج على الاطلاق ، ومن ثم فضل صاحب الزنج مذهب الخوارج الذي يقوم على انتخاب الأفضل بين المسلمين للخلافة ولو كان عبداً حبشياً[٤٣] . ان هذا المذهب الديمقراطي وجد صدى عظيماً في قلوب الطبقات العامة ، بعكس ما انطوى عليه المذهب الشيعي من الصوفية فيما يتعلق بالامامة وعصمة الأئمة وما أسبغ عليهم من الحكمة الالهية[٤٤] . وسنرى أن صاحب الزنج ـ وان ادعى النسب العلوي ـ نبذ هذه الافكار الشيعية ودعى الى أوضح المبادىء أعني مبدأ الخوارج . ذلك أن الزنج ـ وهم على هذه الدرجة من الجهل ـ لا يمكن أن يتحمسوا لحركة صوفية روحية مجردة تستند الى

الوراثة[٤٥] ، بل كانوا على أتم استعداد للانضواء تحت لواء حركة عملية ثورية تجعلهم على قدم المساواة مع غيرهم من المسلمين ، بل وتضعهم في صف واحد مع ذوي الدم الأزرق من أصحاب الحسب والنسب . غير ان هذا كله لا ينفي أن صاحب الزنج أفاد فائدة كبيرة من العقائد الشيعية فقد اعتبر نفسه المهدي المنتظر الذي يريد أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، بدليل أنه لقب نفسه «المهدي علي بن محمد» في القطعة النقدية النادرة المحفوظة في المتحف البريطاني[٤٦] .

أسلفنا القول إن صاحب الزنج اعتنق عقيدة الخوارج الذين مثلوا الحزب الجمهوري في الاسلام فقالوا بوجوب اختيار الخليفة من بين الاكفاء من المسلمين بغض النظر عن النسب واللون . وكان الخوارج في الأصل جماعة خرجت على الخليفة الرابع لقبوله التحكيم بعد صفين ، ومن ثم كانت نشأتهم سياسية تنصب على رأيهم في اختيار الامام ، غير أنهم ـ منذ عهد عبدالملك بن مروان ـ مزجوا آراءهم السياسية بالدين فأصبحت لديهم عقائد فلسفية ودينية خاصة . وظلت هذه الفرقة طوال تاريخها تتميز بالجرأة والعنف والصلابة ، وتنظر الى مخالفيها على أنهم كعبدة الأوثان[٤٧] ، فرموهم بالكفر وعاملوهم معاملة الكفار . وقد اتخذ الخوارج شعاراً لهم «أن لا حكم الا اللّه» ونصبوا أنفسهم حماة للضعفاء وحربا على الجائرين . على أن أهم ما ميز الخوارج نزعتهم الى المساواة حتى جوّزوا انتخاب العبد لمنصب الخلافة[٤٨] ، ما دام يطبق الشريعة ويراعي العدالة ، فاذا ما انحرف عن جادة الصواب وجب خلعه وحق لعنه ، ومن هنا وقفوا في وجه الأمويين والعباسيين باعتبارهم غير مؤتمرين بأوامر اللّه[٤٩] . واشتهر الازارقة ـ الذين اعتنق صاحب الزنج مبادئهم ـ بتكفير عثمان وعلي والزبير وعائشة وعبداللّه بن عباس[٥٠] ، كما كفروا القَعَدة ، وأباحوا قتل أطفال المخالفين ونساءهم[٥١] .

فالى أي حد اعتنق صاحب الزنج عقائد الخوارج ؟ .

١ ـ يقول المسعودي[٥٢] إن المهلبي ـ أحد قواد الزنج ـ كان ينصب منبراً في البصرة ويترحم على أبي بكر وعمر ولا يذكر عثمان وعلياً . ويلعن الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ويخلص المسعودي من ذلك الى القول بأن صاحب الزنج كان يذهب الى رأي الازارقة من الخوارج . ويقول هذا المؤرخ كذلك[٥٣] : ان صاحب الزنج كان يرى الذنوب كلها شركاً ، وبمعنى آخر اعتقد بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وهو مبدأ رئيسي من مبادىء الخوارج[٥٤] . واستطرد هذا المؤرخ مؤكداً رأيه[٥٥] «وظهر من فعله ـ أي صاحب الزنج ـ ما دل على تصديق ما رمي به ، أنه كان يرى رأي الازارقة من الخوارج ، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك» .

٢ ـ يقول صاحب الزنج من خطبة له « اللّه أكبر ، اللّه أكبر ، لا اله الا اللّه واللّه أكبر ، ألا لا حكم الا اللّه »[٥٦] ، وكانت هذه العبارة صرخة الحرب التي نادى بها الخوارج منذ رفضوا التحكيم . وكانوا يعنون بها أن لا حكم الا السيف(٥٧) ، أي أنهم كانوا يرون وجوب الثورة بالسلطان الجائر ، وهو المبدأ الذي استغله صاحب الزنج حين ألب العبيد على الخلافة العباسية .

٣ـ يقول الطبري[٥٨] ، ان صاحب الزنج ابتاع قطعة من الحرير كتب عليها هذه الآية (ان اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّه فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[٥٩] . وتدل هذه الآية التي نقشها صاحب الزنج على لوائه ، على أن ساعة القضاء على الظلم قد أزفت وان المؤمنين وقد باعوا أنفسهم لم

يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية[٦٠] ، ومعنى ذلك أيضاً أن ثورة الزنج كانت خارجية ، فقد باع الثائرون أنفسهم لله يقاتلون في سبيله وهو نفس ما فعله الخوارج من قبل ومن بعد .

٤ ـ نشر الاستاذ ووكر[٦١] قطعة نقدية ذهبية نادرة أصدرها صاحب الزنج سنة ٢٦١ وهي الآن في المتحف البريطاني ، وتقف دليلاً قوياً على أن صاحب الزنج كان خارجياً . ويقول ووكر ان هذه «القطعة» تقف شاهدة على تلك الثورة المدمرة التي سببت خسارة مليون نسمة ، كما ان هناك قطعة أخرى ذهبية نشرها الاستاذ كازانوفا[٦٢] وتوجد الآن في باريس ، على أن القطعة التي اتحدث عنها أقدم تاريخاً وفيما يلي نص ما كتب عليها :

الوجه :

لا اله الا اللّه/ اللّه وحده/ لا شريك له/ محمد بن/ أمير المؤمنين/

الهامش الداخلي :

بسم اللّه ضرب هذا الدينر بالمدنة (هكذا) المختارة سنة احدى وستين ومايتين[٦٣] .

الهامش الخارجي :

ان اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون بسبيل اللّه (هكذا)

الظهر :

علي/ محمد/ رسول/ اللّه/ المهدي علي بن محمد

الهامش :

ومن لم يحكم بما انزل (اللّه فاولائك هم الكا)فرون .

الا لا حكم الا للّه ولا طاعة لمن (عدا) اللّه .

يقول الاستاذ ووكر في مقاله القيّم[٦٤] : «ان المهدي كتب على رايته الآية القرآنية التي ذكرنا جزء منها والتي ظهرت في وجه هذه القطعة النقدية ، وهذه مهارة من صاحب الزنج لانه يستطيع تفسير هذه الآية على انها تدعو الى تحرير اتباعه من العبودية وتمنحهم المساواة بأسيادهم اذا حملوا السلاح في وجوههم وفي وجوه كل المسلمين الفاسقين . ومن ناحية أخرى كانت هذه الآية الشعار الأثير المفضل عند الخوارج وهو الحزب المناوىء للعلويين ، والذي اعتقد ان اتباعه باعو أنفسهم للّه في سبيل الجنة وقد عرفوا بالشراة استناداً الى الآية (ان اللّه اشترى... الآية) ، لهذا نستغرب أن يقتبس علي بن محمد ـ الذي ادعى النسب العلوي ـ هذا الرمز الذي استخدمه اعداؤه . كما وجدت عقيدة الخوارج (الا لا حكم الا للّه) قبولاً لدى العبيد الزنج... لقد اعتنق صاحب الزنج حقاً مبدأ الخوارج ، وهذه القطعة النقدية تؤيد قولنا كل التأييد » .

وما دمنا قد ناقشنا مختلف الآراء حول المبادىء التي تبنتها ثورة الزنج فعلينا أن نناقش ـ في ختام هذا الفصل ـ رأيا للاستاذ ماسنيون يقول إن هناك علاقة بين « راشد القرماطي » ـ وهو احد قواد الزنج ـ وبين القرامطة ويستطرد قائلاً «انه ـ أي صاحب الزنج ـ استطاع بمساعدة طحان وبائع أن ينال يمين الاخلاص من اتباعه على الطريقة القرمطية وهو يمين بالطلاق[٦٥]» . لقد ذكرنا في الفصل الأول ان «القرماطيين» هم طائفة من الزنج اكتسبت هذا الاسم من موطنها الأصلي في افريقية ، ولم يكن راشد سوى أحد أفراد هذه الطائفة ، ومن ثم تنتفي أية علاقة بينه وبين القرامطة وان تشابهت اللفظتان (قرماطي وقرمطي) . الا أنه يبدو ان صاحب الزنج عرض على حمدان قرمط[٦٦] رغبته في محالفته غير ان هذا رفض الاتفاق للتناقض والتنافر الموجود بين مبادئهما ـ أي بين مذهبي الخوارج

والقرامطة[٦٧] ـ «بغض النظر عن الفائدة التي قد تنتج عن هذا التحالف من الناحية العسكرية على الأقل[٦٨]» . هذا فضلاً عن عدم وجود برنامج فكري واجتماعي شامل في حركة الزنج بعكس ما نجد لدى القرامطة الذين تبنوا نظاماً دقيقاً من هذا النوع . ونحن وان كنا مضطرين الى انكار قيام علاقة واضحة بين الحركتين ، لكننا نعتقد أن نوعا من التفاعل الفكري ـ غير التام ـ قام بينهما ، بحكم انهما كانتا متعاصرتين وان كلتيهما راجتا في اوساط الطبقات الدنيا في العراق الأدنى . والحق ان ثورة الزنج مهدت الجو لانتشار القرمطة ، وهيأت الأذهان لقبولها ، كما انها شغلت الخلافة العباسية فترة أربع عشرة سنة ، مما هيأ للقرامطة فرصة العمل على ترويج دعوتهم في سواد العراق .

مراجع وملاحظات الفصل الثالث

(١) Browne, A Literary History of Persia, vol, I, PP,.348 - 49.

أنظر مروج الذهب ج٢ ص٤١٣ ـ ٤١٤ .

(٢) Noldeke, PP,. 149 - 150.

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ص٤٠ .

(٤) المرجع نفسه : ص٦٢ .

(٥) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص٥٥ .

(٦) الطبري : ج٧ ص٥٤٧ .

(٧) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج٨ ص٣١١ .

(٨) مرآة الزمان : (مخطوط) ورقة ١٨٨ أ .

(٩) الطبري : ج٧ ص٦٠٤ .

(١٠) الطبري : ج٧ ص٥٦٥ ، ابن أبي الحديدي ج٨ ص٣١٥ .

(١١) المرجع نفسه : ج٧ ص٦٠٧ .

(١٢) ج٨ ص٣١١ ، ص٣١٥ .

(١٣) المنتظم : ج٥ ص١٧ .

(١٤) الطبري : ج٨ ص٩ ، مرآة الزمان (مخطوط) ج٦ ص١٨٨ .

(١٥) Cambridge Medieval History, vol. IX, PP,. 11 - 16 و PP., 329-332.

(١٦) Encyclopedia Britannica Vol. 22, P., 330.

(١٧) انظر Ibid, vol. 16, PP., 131-133 ، فيما يتعلق بحركة الهنود في الناتال . فقد كانت الزراعة الاستوائية الكثيفة في الناتال تتطلب الأيادي العاملة ، لذلك استعان المستعمرون بالهنود . ووصلت أول دفعة من العمال الهنود سنة ١٨٦٠ ثم أخذت أعدادهم تتضخم ، واشتغلوا في جميع المهن ، فأصبحت بينهم وبين البيض منافسة حادة . لقد عمل الهنود في أنواع التجارات والصناعات والحرف فقاوم البيض هجرتهم الى أفريقيا الجنوبية . وكانت معاملة الهنود في الناتال خاصة سيئة جداً ، فاستنكروا هذه المعاملة وقاموا بمظاهرات وعصيانات في الناتال والترنسفال اشتدت عام ١٩١٣ وكان يتزعمهم غاندي . وبقي الكفاح مستمراً حتى عام ١٩٢٤ ، حين

صدرت تشريعات تمنح الهنود حق الانتخاب ودخول المجالس ، وفي عام ١٩٢٧ وصل الى اتفاق بين حكومة اتحاد جنوبي أفريقيا وحكومة الهند حول هذه المشكلة ، فكان أن تحسنت أحوالهم بعض الشيء . وما زالت المشكلة الجنسية واللونية في أفريقيا الجنوبية تثير خواطر الرأي العام العالمي حتى اليوم ، (سنة ١٩٥٤ ـ الناشر) .

(١٨) Massignon, E. I.Vol, IV., P., 1213.

(١٩) الطبري : ج٧ ص٥٤٧ .

(٢٠) مروج الذهب : ج٢ ص٤٤٧ .

(٢١) المرجع نفسه : ج٢ ص٤٤٧ .

(٢٢) الطبري : ج٨ ص٦٣ .

(٢٣) انظر عن الازارقة ، الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص١٦١ ـ ١٦٤ .

(٢٤) سياست نامه : ص١٦٩ .

(٢٥) المزدكية تنسب الى مزدك الذي ظهر في أيام قباذ سنة ٤٨٧ ، وكان قاضي القضاة فدعا الى الثنوية وقال باشتراك الناس في الأموال ، وآمن به قباذ وكثر أتباعه . ويقول المحدثون ان الحركة المزدكية تختلف عن الاشتراكية الحديثة في طبيعتها الدينية ، وان مزدك يعتقد أن الله يقر المساواة بين البشر ويريدها لكن الصفات الشريرة هي التي أفسدتها فهو يطمح الى اعادتها . وقد حرم مزدك أكل اللحوم وإراقة الدماء ، واعتقد ـ اسوة بالزرادشتية والمانوية ـ بالاصلين النور والظلمة . وقد انقلب على المزدكيين في آخر سنيه فأفنى أنصار مزدك وقتل هذا أيضاً سنة ٥٢٣ ويقال سنة ٥٢٩م . لكن المذهب نفسه لم يفن ويقول نظام الملك إنه اعتنق وروّج من قبل الاسماعيلية .

انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ١٦٢ ـ ١٦٣ .

ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٣ ص٨٦ .

البيروني : الآثار الباقية ص٢٠٩ .

سياست نامه ص١٦٩ ، Browne, P., 170 -72.

(٢٦) الطبري : ج٧ ص٥٦٦ .

(٢٧) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٤٧ .

(٢٨) الطبري : ج٧ ص٥٥٠ .

(٢٩) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٥٠ .

(٣٠) Noldeke, P., 158.

(٣١) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٠ ، ابن كثير ج١١ ص٤١ .

(٣٢) الطبري : ج٨ ص٢ ، أبو المحاسن ج٣ ص٢١ ، الفخري ص١٨٣ ، ابن كثير ج١١ ص٢٩ ، ابن أبي الحديد ج٨ ص٣١١ .

(٣٣) التنبيه والرد : (مخطوط) ورقة ٣١ ـ ٣٢ .

(٣٤) مروج الذهب : ج٢ ص٤٤٧ .

(٣٥) الطبري : ج٧ ص٥٥٤ .

(٣٦) البداية والنهاية : ج١١ ص١٩ .

(٣٧) سورة التوبة : آية ١١١ .

(٣٨) الآثار الباقية : ص٣٣٢ .

(٣٩) النجوم الزاهرة : ج٣ ص٣١ .

(٤٠) الآثار الباقية : ص٣٣٢ .

(٤١) ابن حزم : الفصل في الملل ج٤ ص٩٣ .

(٤٢) المرجع والجزء نفسيهما : ص٩٣ ، كاشف الغطاء : أصل الشيعة ص٦٦ .

(٤٣) أحمد أمين : فجر الاسلام ص٣١٧ .

(٤٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص٧٧ .

(٤٥) Noldeke, P., 152.

(٤٦) A rare coin of the Zanj, P., 651.

(٤٧) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج٣ ص٣٧٢ .

(٤٨) أحمد أمين : فجر الاسلام ص٣١٧ .

(٤٩) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٤٤٦ .

(٥٠) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص١٦٤ .

(٥١) المرجع نفسه : ج١ ص١٦٤ .

(٥٢) مروج الذهب : ج٢ ص٤٤٦ .

(٥٣) ج٢ ص٤٣٩ .

(٥٤) السيادة العربية : ص٧٢ .

(٥٥) مروج الذهب : ج٢ ص٤٣٩ .

(٥٦) المرجع نفسه : ج٢ ص٤٣٩ .

(٥٧) السيادة العربية : ص٦٩ .

(٥٨) ج٧ ص٥٤٦ .

(٥٩) التوبة آية ١١١ .

(٦٠) Muir, the Caliphate, P., 548.

(٦١) A rare coin of the Zanj, PP., 651-655.

(٦٢) Revue Numismatique, PP., 510-516.

(٦٣) في هذا اثبات للرواية الأكيدة في أن ثورة الزنج بدأت سنة ٢٥٥ وليس سنة ٢٧٠ كما يتوهم المسعودي .

(٦٤) A rare coin, PP., 651-55.

(٦٥) Encyclopedia of Islam, vol, IV, P., 1213.

(٦٦) يقول اليماني (كشف أسرار الباطنية ص١٨) إنه سمي قرمط لأنه كان يقرمط في سيره اذا مشى (يعني يقارب بين خطواته) ومنهم من يقول إنه كان أحمر البشرة فلقب بقرمط وكرمت الاجر في لغة الروم فعرب . على أن الراجح ان الكلمة معربة عن (كرميتة) بمعنى فلاح .

(٦٧) Noldeke, P., 152.

(٦٨) Ibid, P., 152.

الفصل الرابع

حرب الزنج ـ قبل الموفق

جغرافية المنطقة وأثرها في الحرب:

وقعت حوادث «ثورة الزنج» في المنطقة الواقعة بين مصب دجلة العوراء (شط العرب الحالي) وبين واسط ، لذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة على جغرافية هذه المنطقة في تلك الفترة ، لأن في الوضع الجغرافي هذا تفسيراً لطابع القتال الذي ميّز الثورة ، وتعليلاً لعجز الدولة العباسية عن قمعها بسرعة حتى دامت أربع عشرة سنة . مع العلم ان وجه الأرض لجنوبي العراق قد تغيّر تماماً منذ الفترة موضوع البحث ، ومن ثم يصعب تعيين كثير من المواقع التي يرد ذكرها في هذه الحرب على وجه الدقة ، وان كان بعضها ما زال قائماً حتى اليوم بنفس الأسم .

كان مجرى الفرات الأصلي فوق خرائب بابل بمسافة قليلة ، ثم اتخذ المجرى الأيمن أو الغربي ، وبعد أن كان يمر بالكوفة تتبدد مياهه في البطيحة وهي المستنقع الكبير الخطير الأثر في الجغرافية الطبيعية والسياسية لتلك الأيام[١] . كان الفرات يكون عند مجراه الأدنى منطقة بحيرات ومستنقعات تتصل بالبحر بعدد من القنوات التي تتأثر بالمد[٢] ، أما دجلة فبعد أن كان يصل إلى موضع الكوت الحالية ، ينجرف جنوباً فيتسع في واسط

حيث يكون النهر المعروف بشط الحي[٣] ، ويبدو ان هذا لم يكن مجرى دجلة بل كان مجراه يمر بواسط[٤] التي يسمى الأعراب خرائبها الآن المنارة[٥] ، ثم يتغلغل النهر تحت واسط بقليل في البطيحة . على أن دجلة يختلف عن الفرات من هذه الناحيـة ، اذ يبقى مجراه متصلاً بسلسلة من الأهور الصالحة للملاحة ، ثم تجري المياه المتجمعة في المستنقع الكبير ـ البطيحة ـ في مجرى يتصل مباشرة بصدر الشط الذي يصل اليه المد ، وبعد أن يعبر البصرة يصب في خليج فارس . أما في الوقت الحاضر فيتجه دجلة بعد عبوره الكوت شرقاً بدل أن يجري نحو واسط ، ويظل متجهاً شرقاً ، لكنه يتجه بعد دورة طويلة نحو القرنة حيث يلتقي بالفرات فيكونان شط العرب ، ولا ندري متى حصل هذا التبدل والراجح أنه كان في القرن السادس عشر تدريجياً[٦] .

كانت المنطقة الجنوبية من العراق مليئة بالمستنقعات والمسطحات المائية التي كانت أهمها تقع قرب البصرة (التي كانت الى الغرب من البصرة الحديثة) وكان الرافد الرئيسي لدجلة اذ ذاك هو ما يسمى الآن بشط الحي ، وكان القسم الأدنى لدجلة يتصل بالرافد الذي كانت تقع عليه البصرة بعدد كبير من القنوات ، بعضها يصلح لملاحة السفن الكبيرة ، وكلها يدخلها المد آنذاك . وان الفيضانات الكثيرة والسداد المكسورة أحالت كثيراً من الأراضي الى مستنقعات على حين نجد أن أراضي أخرى تكونت بفعل التصريف وبناء السدود[٧] . لقد أهمل القسم الأدنى من العراق وأخرب بفعل العوامل الطبيعية «بحيث استحال ذلك القطر الباسم الى آخر وحشي غابي من جراء المستنقعات ، وفي بعض الأجزاء غيرت الأنهار مجاريها ، ومن ثم يصعب على الباحث أن يتتبع بوضوح التفاصيل الطوبوغرافية التي تمدنا بها المراجع في وصف الحملات ضد علي بن محمد »[٨] .

وقعت أكثر حوادث حرب الزنج في منطقة البصرة المطلة على شط العرب وهو ما كان يسمى بدجلة العوراء ، وكانت دجلة «تصب الى دجلة البصرة التي تدعى العوراء في أنهار متشعبة ومن عمود مجراها الذي كان باقي مائها يجري فيه وهو كبعض تلك الأنهار[٩]» . وكانت تتفرع من شط العرب قناتان كبيرتان فتكونان قناة واحدة تسير نحو الجنوب ، ومنها تفرعت ترع كثيرة امتدت في جميع الجهات . أما القناة العليا وهي الشمالية الشرقية فتسمى نهر معقل ، وأما الثانية وهي الجنوبية الغربية فتسمى نهر الأُبُلَّة[١٠] ، ومنها كانت تتكون جزيرة كبيرة مستطيلة تقع البصرة على أقصر ضلع منها[١١] و وقد نسب نهر معقل الى معقل بن يسار المزني الذي يقال إن النهر أجري على يديه في أيام ولاية زياد بن أبيه ، وكان معقل هذا من الصحابة ويروى أن النهر سمي باسمه تبركاً[١٢] . أما نهر الأبلة فنسب الى ميناء الأبلة الذي كان يقع على شاطيء دجلة العوراء في زاوية الخليج الفارسي ، وكان النهر يتجه نحو البصرة وقد حفره زياد بن أبيه[١٣] . ويروى البلاذري[١٤] أن أهل البصرة ظلوا يشربون من ماء الأبلة لعذوبته حتى قدم سليمان بن علي البصرة «واتخذ المغيثة وعمل مسنياتها على البطيحة فحجز الماء عن نهر الدير وصرفه الى نهر ابن عمر وانفق على المغثية ألف ألف درهم فقال : شكا أهل البصرة الى سليمان ملوحة الماء وكثرة ما يأتيهم من ماء البحر فسكر القندل فعذب ماؤهم» .

كانت البصرة تشتهر بكثرة أنهارها حتى قيل إنها بلغت مائة ألف وعشرين ألف نهر[١٥] . وعلى الرغم مما في هذا العدد من المبالغة البينة فان الأنهار والقنوات والجداول المتفرعة من شط العرب على جانبيه ، والنهيرات الفرعية التي حفرت لأغراض الري ما زالت حتى اليوم كثيرة جداً لا يمكن تقدير عددها . وسوف يلاحظ القارىء أن كثيراً من أسماء الأنهار تتردد أثناء الحديث عن حرب الزنج ، وهي على الغالب

جداول فرعية سميت اما بالنسبة للاشخاص الذين احتفروها ، أو نسبة الى الجهة التي تجري فيها[١٦] . ومن أهم هذه الأنهار : نهر أبي الخصيب ـ الذي ما زال يدعى بنفس الأسم ـ والذي نسب الى أبي الخصيب مرزوق مولى الخليفة أبي جعفر المنصور[١٧] ، ونهر الأمير الذي حفره المنصور ثم وهبه لابنه جعفر ، والقندل ، وسيحان ، ونهر البنات الذي نسب الى بنات زياد ، ونهر المرغاب الذي حفره بشير المرغاب في العصر الأموي ، والدير ، ونهر المرأة ، وبثق شيرين ، واليهودي ، على حين نجد في الجانب الشرقي نهر المبارك والريان وبيان[١٨] .

أما البطيحة فهو الأسم الذي أطلق على الأهوار الواقعة بين البصرة وواسط وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة ، غير ان فيضان دجلة والفرات أغرقها فأخفت أغلب الأرض وتغلب الماء[١٩] . ويقول الاصطخري[٢٠] انه كانت في حدود البصرة «آجام كثيرة وبطائح » تسير فيها القوارب الصغيرة ، ثم تراجعت عنها المياه بعد ما بنيت البصرة وشقت الأنهار فغلب الماء على المناطق المنخفضة فأصبحت أشبه بالمستنقعات ، وكانت هذه المستنقعات أو الأهوار تتصل ببعضها حتى تصب جميعاً في دجلة العوراء[٢١] . ويرجع البلاذري[٢٢] زمن تكون البطيحة الى أيام قباذ بن فيروز (٤٨٧ ـ ٥٣١م) حيث انبثق في أسفل كسكر[٢٣] بثق عظيم ، فأغفل أمره حتى أغرقته مياهه كثيراً من الأراضي العامرة ، وفي عهد أنو شروان ردمت بعض هذه المستنقعات فعمرت كثير من الأراضي . غير انه حصل بين سنتي ٦ ـ ٧هـ فيضان طاغٍ في نهري دجلة والفرات فانكسرت السدود ، وأغرقت المياه منطقة البطائح وعبثاً حاول أبرويز أن ينقذ الأراضي الزراعية من الغرق . وحدث فيضان آخر أيام الفتوحات الاسلامية للعراق فاتسعت البطيحة وعظمت ، وعلى الرغم من أن الأمويين استخرجوا بعض الأراضي بالبطائح

أيام معاوية والوليد وهشام كانت تدر عليهم غلة وفيرة ، إلا أن محاولة جدية لم تبذل لوقاية هذه الأراضي أيام الفيضان ، بل إن المشاكل الداخلية والمصالح السياسية كثيراً ما أدت الى الوقوف موقفاً سلبياً من الفيضانات في تلك المنطقة كما حصل أيام الحجاج[٢٤] .

ساعد هذا الوضع الجغرافي الذي ألممنا به على جعل حرب الزنج واجباً شاقاً بالنسبة للجيوش العباسية ، لأن هذه الجيوش الضخمة ذات التجهيزات الثقيلة كان يصعب عليها التنقل السريع في تلك البقاع التي تكتنفها المسطحات المائية وتخترقها مئات القنوات ، والتي تمتليء بالحلفاء والبردي والقصب .

إن هذه «الطوبوغرافية» المعقدة جعلت الحرب حرباً غير منظمة يصعب فيها تقابل الفريقين المتحاربين وجهاً لوجه ، ومن ثم غدت حرب كمائن وعصابات مانعة متنقلة من مكان الى آخر بسرعة عجيبة مما ساعد على اطالة أمد الحرب وجعل قمعها أمراً عسيراً على الخلافة . لقد شهدت هذه البقعة قبل ثورة الزنج بحوالي أربعين سنة عصياناً قام به الزط ـ وهم من هنود فارس ـ ضد الدولة العباسية ، لم يهدأ الا بعد مجهودات جبارة بذلها المأمون والمعتصم ، مع أن الزط لم يكونوا يوازون الزنج لا في العدد ولا في الشجاعة ، وفي وقت كانت الخلافة في عصرها الذهبي[٢٥] . ويجب أن نضع نصب أعيننا ملاحظة هامة حين نتحدث عن اعمال الزنج الحربية وهي ان هذه الطبيعة كانت في صالحهم ، فقد كانوا يحاربون على تربة اعتادوها جيداً وخبروها طويلاً لاشتغالهم عليها . وبينما كان الزنج يقسمون أنفسهم الى عصابات قليلة العدد خفيفة الأسلحة سريعة الحركة ، كان العباسيون على شكل فرق ضخمة ثقيلة السلاح اعتادت الحرب على أرض صلدة . ومن هنا

قاسى العباسيون متاعب جمة ، حتى أبو أحمد الموفق نفسه الذي تعب كثيراً من «ضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها[٢٦]» .

ومن أمثلة الصعوبات التي كان يلاقيها العباسيون في هذه الحرب ما يرويه الطبري[٢٧] عن استغلال الزنج لهذه الطبيعة المعقدة وكيف كانوا يجرون المياه على السباخ التي يسلكها أصحاب الموفق كيلا يجدوا الى سلوكها سبيلاً ، وكيف كانوا يحفرون خنادق في مواضع عدة يحولون بها دون تقدم الجيوش العباسية . وكان الموفق يضطر الى اضاعة كثير من وقته وجهده في طم وردم الخنادق والأنهار والمواضع الضيقة «كي تصلح فيها مسالك الخيل والرجالة[٢٨]» . ونجد الموفق ـ في حوادث سنة ٢٦٩ ـ يقاسي مشقة في العبور الى معسكر الزنج لصعوبة سير الجيوش ، فيأمر بقطع النخيل واصلاح الأرض وبناء الاستحكامات وحفر الخنادق[٢٩] .

هذا الى أن النخيل كثيف في هذه المنطقة المحيطة بشط العرب ، التي ما تزال تعد من أكثف مناطق غابات النخيل في العالم ، فساعدت هذه الكثافة في الأشجار الزنج على أن ينظموا أنفسهم في جماعات صغيرة العدد تكمن بين الأشجار تتربص بقوات العباسيين الدوائر ، فتأخذها على حين غرة ، وتمدنا المراجع بأمثلة كثيرة على براعة الزنج في نصب هذه الكمائن بين أشجار النخيل وفي القنوات الممتلئة بالنباتات ليلاً ونهاراً ، حتى اذا ما لاح لهم جيش عباسي أو سفينة تحمل الميرة ، انقضوا من مكمنهم بخفة تثير الأعجاب[٣٠] ، وقد طالما قاسى الجيش العباسي من تبييت الزنج له على حين غرة ، مما كان يربك مؤخرته ويسبب له الهزيمة .

واستخدم الزنج الكشافة والطلائع التي كانت تنبث بعيداً في مواضع

متفرقة لتأتي بأخبار حركات الجيوش العباسية ، وكان صاحب الزنج يلم بجميع أخبار العباسيين وهو في موضعه بفضل جواسيسه وكشافته ، فيرسم الخطط الآنية للقاء العباسيين ، أو تحاشي لقائهم حسبما توحيه مصلحته . ومن الطريف ان صاحب الزنج كان يتخذ جواسيس ينقلون له كل ما يحدث داخل معسكر العباسيين ، فقد اخبره رجلان من أهل عبادان بخبر الحريق الذي نشب في معسكر أبي أحمد الموفق سنة ٢٥٨[٢١] .

كذلك استغل الزنج خبرتهم في الأنهار فبرهنوا على براعة في «حرب الماء» ـ ان صح التعبير ـ وقد ساعدتهم الطبيعة كثيراً ، فكانت الرياح تهب وتعصف في بعض الأيام في شط العرب فتتعذر الحرب على العباسيين ، وينتهز الزنج فرصة شلل حركة عدوهم فيستولون على السفن التي تربكها الرياح ، واذا ما ألقى ركاب هذه السفن بأنفسهم في الماء تبعهم الزنج وفتكوا بهم قتلاً وأسراً واغراقاً[٢٢] ، لأن الزنج كانوا يجيدون العوم والسباحة بحكم اقامتهم الطويلة في تلك المناطق . ومجمل القول ان العباسيين قاسوا كثيراً من «كثرة الأدغال في ذلك الموضع ، وصعوبة المسالك ، وان الزنج على التوغل الى المواضع الموحشة أقدر وهو عليهم أسهل[٢٣]» .

غارات الزنج على البصرة

بدأت حركة الزنج في ليلة السبت ٢٨ وقيل ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥هـ (١٠ سبتمبر سنة ٨٦٩م) ، في عهد الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق (٢٥٥ ـ ٢٥٦) . وعلى الرغم من أن المهتدي كان من أعظم خلفاء هذه الفترة وأشدهم رغبة في الاصلاح ، الا أنه كان في شغل شاغل بصراعه الرهيب مع القواد الأتراك الذين أصبحوا منذ اغتيالهم المتوكل سنة ٢٤٧

القوة الموجهة للسياسة الداخلية والخارجية وعلى رأسهم موسى بن بغا وصالح بن وصيف وبايكباك ، حتى أنهم لم يجدوا رادعاً يردعهم عن تعذيب الخليفة وقتله بصورة مذلة لا لأمر سوى أنه حاول ـ عن طريق استعانته بالعامة ـ ايقاف نفوذ الأتراك عند حده[٢٤] . وكانت بداية الحركة بخروج علي بن محمد في فرات البصرة حيث كان يقيم في موضع يدعى قصر القرشي في برنخل ، وكان أول ما فعله أنه قبض على خمسين عبداً لرجل يدعى العطار كانوا في طريقهم الى عملهم في كسح السباخ ، ثم اتجه الى موضع آخر فأخذ منه خمسمائة غلام ، وهكذا طفق يتجول في المنطقة المجاورة طوال يومه يتصيد العبيد «حتى اجتمع اليه بشر كثير من غلمان الشورجيين[٢٥]» . وكان بينهم جماعة من وجهاء الزنج الذين أصبحوا فيما بعد قواداً ممتازين في جيش الثورة منهم طريف وصبيح الأعسر وراشد المغربي وراشد القرماطي[٢٦] . وكان لا بد لعلي بن محمد أن يعمل على كسب ثقة هؤلاء العبيد المذعورين فألقى فيهم خطبته الأولى التي وضح فيها برنامجه على النحو الذي مر بنا . وحين حاول وكلاء أصحاب العبيد أن يغروا صاحب الزنج بالمال ليطلق سراح عبيدهم ، أمر ببطح هؤلاء الوكلاء ودعا غلمانهم الى ضربهم بالعصا[٢٧] ، وهكذا انتقم العبيد لأول مرة من سادتهم الذين طالما أهانوهم واضطهدوهم ، ومن ذلك بدأ العداء على أشده بين الملاكين ونوابهم من ناحية وعلي بن محمد وأتباعه الزنج من ناحية أخرى .

ولما أصبح عدد أتباعه ضخماً أخذ على ينظمهم على شكل فرق ويضع عليهم قوادا ورؤساء ، ووعدهم بأن كل من يأتي بتابع جديد يضمه اليه ويجعله تحت قيادته . وبرزت أمام قائد الزنج مشكلة خطيرة هي الحاجة الملحة الى السلاح ، فقد كان معسكره في هذا الوقت لا يحوي غير ثلاثة أسياف[٢٨] ، بل لقد كان أصحابه عزلاً الى حد أن أحدهم استعمل طبق الطعام

كسلاح رمى به عدوه[٣٩] . كما ان جيش الثورة كان يعوزه المال للصرف على شؤرن الحرب والتموين . ولكي يحل علي هذه المشكلة لجأ الى الإغارة على القرى المجاورة ، فهاجم قرية الجعفرية حيث عثر على مائتين وخمسين ديناراً وألف درهم «فكان هذا أول ما صار اليه[٤٠] » . كما انه حصل على ثلاثة براذين منحها لقواده ، أما هو فقد كان يركب فرساً أهدي اليه . وفي هذه القرية نفسها حصل الزنج على كثير من الأسلحة من السيوف والآلات والتراس[٤١] . وفي ذات الوقت استمر عدد الزنج يتضخم الى درجة أن علياً زج بستة آلاف جندي في موقعة واحدة[٤٢] .

برهن صاحب الزنج على عبقرية في القيادة وبعد نظر في رسم الخطط الحربية ، ففي هذه الفترة المبكرة حشد كل مواهبه لكسب النصر ، فاستخدم الجواسيس والكشافة لارتياد المناطق المجاورة ودراسة حال اعدائه ، ووزعهم توزيعاً جيداً على المناطق «الاستراتيجية» . كذلك اتبع حرب الأعصاب وسيلة لاضعاف اعدائه ، فكان اذا احتل قرية من القرى حمل رؤوس القتلى على البغال ، خاصة وقد كان مذهب الازارقة ـ كما أسلفنا ـ يبرر قتل الأسرى باعتبارهم كفاراً ، على حين يحتفظ بالنساء والأطفال بمثابة غنائم[٤٣] . غير اننا يجب أن نعترف بأن صاحب الزنج لم يكن يهاجم القرى المسالمة ، بل كان يتحقق من كون أهلها أعداء ثبت عداؤهم ، حتى لقد رفض بإباء مهاجمة قرية القادسية ما دامت لم تتعمد ايذاءه[٤٤] . ويقول ابن كثير[٤٥] ، انه لم يكن يتعرض «لأموال الناس ولا يؤذي أحداً وانما يريد أخذ أموال السلطان» . وتوضح لنا القصة التالية أسلوب صاحب الزنج في الدعاية من ناحية وأن حركته كانت موجهة ضد ملاك العبيد والدولة فحسب من ناحية ثانية : مرت ألف وتسعمائة سفينة فيها حجاج أرادوا سلوك طريق البصرة فناظرهم حتى غروب الشمس «فجعلوا يصدقونه في جميع قوله وقالوا لو كان

معنا فضل نفقة لأقمنا معك فردهم الى سفنهم ، فلما أصبحوا اخرجهم فأحلفهم ألا يخبروا أحداً بعدة أصحابه وأن يقللوا أمره عند من سألهم عنه ، وعرضوا عليه بساطاً كان معهم فأبدله ببساط كان معه ، واستحلفهم أنه لا مال للسلطان معهم ولا تجارة ، فقالوا معنا رجل من أصحاب السلطان فأمر بإحضاره فأحضر ، فحلف الرجل انه ليس من أصحاب السلطان وانه رجل معه نقل أراد به البصرة... فخلى سبيله وأطلق الحجاج فذهبوا»[٤٦] .

واستطاع علي أن يعرف بوساطة جواسيسه ان أهل البصرة جهزوا جيشاً من المتطوعة لقتاله ، لكنه استطاع أن يمزق هذا الجيش الذي كان يقوده جماعة من أعوان الخلافة كرميس والحميري . وحاول رميس أن يشتري ذمة صاحب الزنج لكن هذا رفض بشدة ، ودارت بين الفريقين وقعة أخرى ، وانضم أهل القرى ـ وبخاصة الطبقات العليا ـ ضد صاحب الزنج دفاعاً عن مصالحهم وأملاً في استرجاع عبيدهم . ونلاحظ ان أهم المتطوعة في جيشي رميس والحميري كانوا من قرى المفتح ومن الأبلة وفرات البصرة ومعهم جماعة من الدبيلا وهم عبيد بجوار البصرة من أصل هندي درافيدي[٤٧] كانوا فيما يبدو من المحاربين الخطرين بدليل ان صاحب الزنج كان يعطي لمن يقتل واحداً منهم «ديناراً خفيفاً[٤٨]» . وأخذت قوة الزنج تزيد وساعدهم يشتد بما اجتمع لديهم من مال وجوهر وحلي وأواني وسلاح وأسرى ، كما استطاعوا أن يهزموا جيشاً كبيراً من أربعة آلاف محارب كان يقوده تركي يدعى أبا هلال ، ولم يمض غير قليل حتى هزموا جيشا ثالثاً[٤٩] . غير ان جيش الزنج لاقى هزيمة قاسية في ١٢ من ذي القعدة سنة ٢٥٥ (٢٣ تشرين الأول ٨٦٩م) أي بعد ستة أسابيع من بداية الثورة ، ولم ينج علي نفسه من الموت الا بأعجوبة[٥٠] ، على أن البصريين لم يفيدوا من هذا النصر كثيراً ، لأن صاحب الزنج ما لبث أن جمع شمل أصحابه وأعاد تنظيمهم ، بحيث استطاعوا في اليوم التالي أن ينقضوا على

مؤخرة جيش البصريين الذي كان يتقدم بمحاذاة النهر ، مستفيدين من الكمائن التي نصبوها على الضفتين . وأسر الزنج بعض السفن ، واستماتوا في القتال ، وسببوا للقسم الثاني من الجيش البصري الذي سلك طريق البر هزيمة أشد وأنكى . وكان هذا أول لقاء جدي مع أهل البصرة وقد ظل حيا في ذاكرتهم ، حتى ذكره الناس في أشعارهم ودعوه بـ «يوم الشذا[٥١]» . وقد كان عدد القتلى من البصريين في هذه الموقعة (في ذي القعدة) كبيراً جداً حتى ملأت رؤوسهم سفينة كبيرة[٥٢] ، وكان من بين القتلى كثير من أفراد الأسرة العباسية نفسها . أما تأثير هذه الهزيمة على معنوية أهل البصرة فقد كان عظيماً بحيث أصابهم الفزع والرعب ، فأمسكوا عن حرب الزنج وكتبوا الى الخليفة يلحون عليه في ضرورة التدخل[٥٣] .

وقد لبى الخليفة نداء أهل البصرة فأرسل القائد التركي جعلان ، ومن ثم تحولت حرب الزنج من حرب محلية بين العبيد وأهل البصرة الى حرب عامة تدخلت فيها السلطة المركزية . غير ان جعلان برهن على ضعف عجيب ، فقد بقي ستة أشهر مخندقاً قبالة معسكر الزنج وعلى مبعدة ثلاثة أميال فقط دون أن يخطو خطوة إيجابية . أما علي بن محمد فلم يقف مكتوف اليدين ، بل أخفى جماعة من أصحابه بيتوا لجعلان ليلاً وأخذوا عليه السبل فأوقعوا في جيشه أشد الرعب وقتلوا منه عدداً ليس بالقليل[٥٤] ، ولم يلبث الخليفة أن عزل جعلان عن مهمة حرب الزنج . أما هؤلاء فقد كسبوا نصراً جديداً حين استولوا على اسطول مكون من أربع وعشرين سفينة في طريقه الى البصرة . وذهبت في هذه الموقعة النهرية ضحايا كثيرة ، على حين كانت غنائم الزنج من الأموال والسبايا لا تعد ولا تحصى . وكان هذا الفوز «غنيمة باردة» كما عبر صاحب الزنج نفسه ، الذي حث اتباعه على مهاجمة تلك السفن مدعياً أن صوتاً من السماء خاطبه ان : «قد اطلك فتح عظيم[٥٥]» .

احتلال الزنج الأبلة وعبادان والأهواز:

هاجم الزنج بعد أن اشتد ساعدهم الابلة ، وهي الميناء التجاري العظيم الذي كان يقع على شاطىء شط العرب في زاوية الخليج الفارسي[٥٦] ، على بعد أربع ساعات من البصرة القديمة ، وذلك في ٢٥ رجب سنة ٢٥٦هـ (٢٩ حزيران سنة ٨٧٠م) . ودخل الزنج المدينة أثر معركة عنيفة قصيرة جرت في البر والبحر ، وكان دخولهم اياها مصحوباً بمجزرة هائلة ، فقد قتل وغرق من أهلها الكثير ، وذهبت بيوت المدينة المبنية من خشب الساج[٥٧] طعمة للنيران . وكسب علي بن محمد كميات هائلة من السلاح وحرر العبيد هناك واستولى على حصن المدينة .

وأهمية الابلة واضحة فقد كانت مدينة خصيبة عامرة وتعد أكبر المدن المحيطة بالبصرة ، وكانت تقع على النهر المسمى بها . ويروي البلاذري[٥٨] ان أبا موسى الاشعري مد نهر الابلة من موضع الاجانة (وهي خور يبعد ثلاثة فراسخ عن البصرة) الى البصرة ، ثم انطم جزء من هذا النهر فحفره زياد بن أبيه حتى بلغ البصرة ، وبذلك أصبح طول النهر أربعة فراسخ . وفيها قصور وأسواق ومساجد وأربطة «وهي من الجمال بحيث لا يمكن حدها أو وصفها[٥٩]» . وكان شط العرب يقع الى الشرق من هذه المدينة .

كان لدخول الزنج الابلة بهذه السهولة ، أبلغ الأثر على عبادان ، فقد بلغ الرعب بأهلها أقصاه[٦٠] . وعبادان بلدة صغيرة تقع على جزيرة في مصب نهر شط العرب الحالي قرب البحر[٦١] . وقد فتح أهلها أبواب مدينتهم واستسلموا للمغيرين دون قيد أو شرط ، فدخلها علي بن محمد وحرر من كان بها من العبيد وألحقهم بجيشه ، وأستولى على ما فيها من السلاح فوزعه على أصحابه[٦٢] .

ولما استسلمت عبادان طمع صاحب الزنج في الأهواز ، فهاجم جبى وهي بلدة من أعمال خوزستان[٦٣] ، فانهارت سريعاً وانفتح الطريق أمام الزنج الى الأهواز ، وهي عاصمة المنطقة التي كانت تقع على نهر كارون الحالي . ويبدو ان واليها سعيد بن يكسين أدرك انه لا قبل له بلقاء الزنج فانسحب بجنده ، على حين فضل ابراهيم بن المدبر صاحب الخراج المقاومة ، فكان مصيره أن أسر وصودرت أمواله ومتاعه وعبيده ، وبذلك سقطت الأهواز في يوم الأثنين ١٢ رمضان سنة ٢٥٦ (١٤ آب سنة ٨٧٠م)[٦٤] .

وهكذا استطاع علي بن محمد في أقل من سنة واحدة أن يخضع لسلطانه مدناً عظيمة الأهمية ، ويسود على مصب دجلة ، فأثرت هذه الأحداث الخطيرة على بغداد التي اختلت مواصلاتها مع هذه المقاطعات مما عرض التجارة لأضرار بالغة . أما البصرة فصعقت من مصير الابلة واهتزت له «فانتقل كثير من أهلها عنها وتفرقوا في بلدان شتى وكثرت الاراجيف من عوامها[٦٥]» .

ولم تكن الأمور تصل الى هذا الحد لو لم تكن سامراء عاصمة الخلافة تقاسي اضطراباً داخلياً شديداً . ففي الوقت الذي كانت الابلة تهوي تحت معاول الزنج ، كان الأتراك يتآمرون على الخليفة السيء الطالع المهتدي بعد حكم قصير لم يبلغ السنة الواحدة . وعلى الرغم من أن الخليفة الجديد أحمد المعتمد على الله بن المتوكل(٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) لم يكن بالشخصية القوية التي تتطلبها هذه الظروف ، فإن الخلافة دخلت في مرحلة من القوة والانتعاش بفضل أخيه أبي أحمد الموفق طلحة ، الذي أصبح الحاكم الحقيقي تاركاً للمعتمد ألقابه ومظاهره فحسب[٦٦] . وقد استطاع أبو أحمد بالفعل أن يعيد الى الخلافة هيبتها في المناطق المركزية على الأقل ، وأن يقف في وجه الزنج ـ كما سنرى ـ وقفة عنيدة .

وبدأ الموفق أعماله ضد الزنج بإرسال جيش يقوده غلامه سعيد بن صالح الحاجب في رجب سنة ٢٥٧ (بداية صيف سنة ٨٧١م)[٦٧] . واستطاع الحاجب أن يكبد الزنج خسائر فادحة أول الأمر حين هزم جيشاً زنجياً كان يعسكر على نهر المرغاب المتفرع من نهر معقل ، غير أنه أصيب بجراح خطيرة أرغمته على أن ينسحب الى موضع يقال له هطمة بفرات البصرة ليستجم ويعيد تنظيم جيشه[٦٨] . والحق ان الحاجب تفوق خلال شهري رجب وشعبان على الزنج بفضل المتطوعة من سكان فرات البصرة من الرجال والنساء[٦٩] . غير ان الزنج ما لبثوا أن باغتوا جيش الخلافة في هجوم ليلي بارع فأحرقوا معسكره وقتلوا الكثيرين ، وكان مصير الحاجب أن عزل متخلياً عن منصب القيادة لمنصور بن جعفر الخياط[٧٠] . على أن منصور الخياط لم يكن أحسن حظاً من سلفه ، فإنه على الرغم من محاولته ضرب حصار اقتصادي على الزنج لمنع الميرة عنهم ، فإن هؤلاء نصبوا له كميناً وقتلوا من جيشه عدداً هائلاً ، بحيث حملت خمسمائة رأس في معسكر الزنج في معقل كاعلان عن هزيمة القائد العباسي[٧١] .

أما في الأهواز فقد استطاع القائد الزنجي علي بن أبان المهلبي أن ينتصر على القوات العباسية في وقعات كثيرة . وقتل شاهين بن بسطام من كبار الموظفين هناك . وألحق المهلبي هذا النصر بنصر آخر حين سار الى البصرة بأمر صاحب الزنج فقطع مواصلاتها بدجلة ولم يمض على اعادة القوات الامبراطورية لها وقت طويل[٧٢] .

احتلال البصرة:

يبدو ان هدف صاحب الزنج الرئيسي كان احتلال البصرة ، ولما كان هذا المشروع الضخم يستدعي كثيراً من الاستعدادات والجهود ، فإنه وضع

خطة غاية في الاحكام تتلخص في قطع مواصلات هذه المدينة بدجلة وفرض الحصار الاقتصادي الشديد عليها ، وعزلها عن المناطق المجاورة عزلاً تاماً ، ومحاولة استغلال الضغائن والعصبيات التي كانت تمزق أهلها شر ممزق . وقد نجح الزنج في عزل البصرة وحصارها وخربوا ما حولها من المدن والقرى تمهيداً لدخولها . ومما ساعد الزنج في مشروعهم ان الحامية التي كانت في المدينة ضئيلة جداً وقد مزقتها الضغائن الحزبية والحزازات العصبية التي طالما ثارت بين السعديين والبلاليين الاتراك ، ويبدو ان المدينة كانت تعاني عصبية طائفية بين الربعيين وهم شيعة وبين السعديين من السنة كما يروي المؤرخون[٧٣] . وقد زاد الأمر سوء ان البصرة أخذت تقاسي الغلاء وندرة الاقوات ، فقد عض الجوع أهل البصرة وكثر الوباء بها واستمرت الحرب فيها بين الحزبين المعروفين بالبلالية والسعدية[٧٤] .

كانت الظاهرة الرئيسية في «حرب البصرة» هي محاولة كل من الفريقين الحصول على الميرة الكافية ومنعها عن الفريق الآخر . ويروي شاهد عيان ان صاحب الزنج كان يستعين بالاعراب في هذا المجال ، فيوجه الأموال الى البادية لاغراء زعماء القبائل على إمداد جيشه بالتموين[٧٥] . أما القائد العباسي منصور الخياط فقد شغل نفسه بإيصال الميرة الى المدينة التي عضها الجوع وأضر بأهلها ، ويبدو ان هذا العمل استنزف كل جهوده فلم يستطع أن يضع خطة عسكرية تحول بين الزنج ودخول البصرة . لقد حشد صاحب الزنج خيرة قواده لفتح البصرة ، فأسند القيادة العليا الى علي بن أبان يساعده يحيى بن محمد ، ووفق الأول الى عرقلة مواصلات البصرة فعاد أهلها الى ما كانوا عليه من الضيق[٧٦] . ومن ثم صمم الجيش الزنجي على مهاجمة المدينة في يوم الجمعة ١٧ شوال سنة ٢٥٧ (٧ أيلول سنة ٨٧١م) ، فدخلها من ثلاث جهات ، وجرت الاعمال المعتادة من قتل وحرق طوال يومي الجمعة

والسبت . ثم انسحب علي بن أبان من المدينة خوف الكمناء ، لكنه أعاد الكرة يوم الاثنين فدخلها ، وانتقم الزنج من أهلها شر انتقام ، واعمل العبيد المتعطشون للثأر سيوفهم في جموع أهل البصرة ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة . وعظم الخطب وعمها القتل والنهب والاحراق . وقتلوا كل من رأوا بها من أهل اليسار وأخذوا ماله[٧٧]...» ، وأحدقت النار بالمدينة من كل جانب فالتهمت كل شيء مرت به «من انسان وبهيمة وأثاث ومتاع[٧٨]» .

كان احتلال البصرة نصراً مؤزراً للزنج وكارثة مؤلمة بالنسبة للخلافة ، ذلك ان هذه المدينة كانت عين العراق وميناءه النهري الوحيد ، ومعنى السيطرة عليها قطع التجارة العباسية الصادرة والواردة ، وتهديد جميع المناطق المجاورة . وقد أسهبت المراجع في وصف المآسي التي لحقت بهذه المدينة من جراء الاحتلال الزنجي ، حتى ليبدو انها تخربت الى حد كبير وفقدت كثيراً من معالمها العمرانية منذ ذلك اليوم ، بل ما زال المثل السائر «بعد خراب البصرة» حيا في ذاكرة البصريين . ويقال ان ضحايا هذه الموقعة كانوا ٣٠٠ ألف وهو أقل تقدير لعدد القتلى من أهل البصرة في هذه المجزرة[٧٩] . ويروي المسعودي[٨٠] ان كثيراً من أهل هذه المدينة اختفوا في الدور والآبار «فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء . فكانوا اذا مات الواحد منهم أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب» . ويروي هذا المؤرخ قصة أقرب الى الخيال ، ونحن وان كنا نشك كثيراً بما جاء فيها ، الا اننا نثبتها هنا لأنها تعبر عن الصورة التي خلفتها حرب الزنج في أذهان الأجيال التالية . يقول المسعودي[٨١] : «ذكر عن امرأة منهم ـ أي أهل البصرة ـ أنها حضرت امرأة تنازع ومعها أختها وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلون

لحمها . قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها . ولقد حضرت أختها وقد جاءت على النهر وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين ؟ فقالت : اجتمعوا على اختي فما تركوها حتى تموت موتاً حسناً حتى قطعوها ، فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً الا رأسها هذا وهي تشتكي ظلمهم لها في اختها... » .

وقد اوحت حادثة « خراب البصرة » لابن الرومي بقصيدة رائعة[٨٢] ـ على ما حوته من المبالغة والزيف ـ تقف كوثيقة تاريخية بالغة الأهمية في تصوير ما كانت عليه البصرة في القرن الثالث من العمران والتقدم وما آلت اليه من الانحطاط والخراب . لقد كانت هذه المدينة ـ على حد قول ابن الرومي ـ معدن الخيرات وقبة الاسلام وفرضة البلدان ، مزدحمة بالناس كثيرة الضجة والصخب والضوضاء ، وهي ذات أبنية ودور عامرة وأسواق نشيطة بالبيع والشراء ، وسفن تجري في النهر حافلة بالبضائع والركاب .

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها	أين ذاك البنيان ذو الاحكام
بدلت تلكم القصور تلالا	من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليها	فتداعت أركانها بانهدام
بل ألمّا بساحة المسجد الجا	مع إن كنتما ذوي إلمام
فاسألاه ـ ولا جواب لديه ـ	أين عباده الطوال القيام

يمدنا ابن الرومي بصورة تاريخية زاهية للهجوم المباغت الذي قام به الزنج على البصرة ، وهو وان طفحت قصيدته بالعداء للزنج من ناحية وبغلبة المبالغة الشعرية على الحقيقة التاريخية من ناحية ثانية ، الا أن الباحث لا يملك الا أن يستشهد ببعض أبياتها التي رسمت صورة دقيقة لأهل البصرة وقد باغتهم هجوم العبيد الذين دخلوا المدينة « كأنهم قطع الليل » فأشعلوا

النار فيها من « يمين وشمال ومن خلف وأمام » . ونجد هاهنا شارباً غص بشرابه ، وطاعماً غص بطعامه ، وهارباً تعثر في هربه فراح ضحية للحسام . ونبصر أخاً ينتدب أخاه الصريع ، وأباً يشهد بعينيه مصرع فلذات كبده ، ورضيعاً قتل « قبل الفطام » . ثم يصور ابن الرومي ـ مع المبالغة والتعصب الواضحين ـ العذارى الأبكار وقد قادهن الزنج سافرات الوجوه داميات الأقدام كسبايا حرب يوزعن بين الجند الغالبين . وبعد أن ينتهي الشاعر من وصف المدينة المخربة يخرج الى غرضه الخفي وهو الدعوة الى الثأر من صاحب الزنج الذي قاد « العبيد الطغام » الذين « انتهكوا محارم الاسلام » . ومهما يكن من أمر فإن هذه القصيدة تصور وجهة النظر المعادية للزنج ، وتوقفنا على ما لقيته البصرة من تخريب وتدمير نتيجة هذه الأحداث .

والحق ان صاحب الزنج كنّ للبصريين أشد العداء وطالما عبر عن نقمته عليهم ورغبته في الانتقام منهم لأسباب عديدة ، فقد كانت البصرة آنذاك مركزاً لطبقة كبيرة من الأغنياء الذين كونوا ثرواتهم الطائلة من استثمار العبيد في الزراعة ومن اشتغالهم في التجارة[٨٣] ، وقد مر بنا ان مالكي العبيد كانوا جلهم من هؤلاء البصريين ، من ثم كانت ثورة الزنج موجهة ضد هذه الطبقة بالدرجة الأولى . وقد وقفت الطبقة العليا من أهل البصرة ضد ثورة الزنج منذ البداية ، فإنه لم يكد يمضي على بدء الحركة سوى خمسين يوماً حتى قاد حماد الساجي المتطوعة وأهل حي المسجد الجامع وجماعة من الهاشميين والقريشيين لقتال الزنج[٨٤] ، كذلك انضم أهل المفتح والقرى المتصلة بها الى رميس وعقيل ـ من موظفي الدولة ـ لحرب الزنج[٨٥] ، وظل أهل البصرة يقاومون صاحب الزنج ويظهرون له العداء حتى نهاية الثورة ، فلا نعجب اذا كان انتقام الزنج من البصريين رهيباً الى هذا الحد . ومع كل ذلك فإن الطبقات العليا في البصرة نفسها ساهمت في تسليم مدينتهم للزنج ،

فهناك اشارة الى ان جحظة والى البصرة اذ ذاك تسلم من صاحب الزنج رشوة قدرها ثلاثون ألف دينار فسلم اليه المدينة[٨٦] ، كما ان أولي الأمر في المدينة لم يقفوا موقفاً جدياً في صد الزنج حتى ان أهل البصرة طلبوا شخصاً مسؤولاً يحاربون تحت قيادته فلم يجدوا ، لأن الموظفين الكبار تَخَلّوا عن المسؤولية وهربوا خارج المدينة[٨٧] . وقد اعترف الطبري[٨٨] بأن «وجوه أهل البصرة وسلطانها المقيم بها كانوا من الغباء عن حقيقة خبر الخائن ـ يعني صاحب الزنج ـ على ما وصفت» ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال ان ابراهيم بن محمد المعروف ببريه من كبار الموظفين وهارون بن عبدالرحيم الشيعي صاحب البريد كانا مطمئنين الى أن العرب لن يساندوا الزنج في حرب البصرة وان مجموع من جمعهم علي بن محمد من العرب لم يزيدوا على تسعة أشخاص! هذا في الوقت الذي دخل الزنج البصرة وفي مقدمتهم فرقة كبيرة من الفرسان العرب الذين كان لهم دور كبير في احتلال المدينة[٨٩] .

فترة الانتقال:

في يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٥٨ عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق طلحة على ديار مضر وقنسرين والعواصم ، وفي يوم الخميس أول ربيع الآخر وجهه هو ومفلح ـ بعد أن خلع عليهما ـ الى البصرة لحرب الزنج[٩٠] . وهذا دليل على أن الخلافة بدأت تشعر بخطر الزنج بعد أن ظهر عجز القواد الصغار عن ايقاف تقدمهم ، وبدا ان الرجل الوحيد الذي يستطيع انقاذ الموقف هو ولي العهد الذي قاد جيشاً ضخماً «لم ير أحسن منه عدة ، وأكمل سلاحاً وعتاداً وأكثر عدداً وجمعاً[٩١]» . وقد اوقع هذا الجيش اللجب الرعب في قلوب الزنج ، وكادت عزيمتهم أن تنهار ، لولا أن أدرك زعيمهم

الخطر فأرسل يستدعي علي بن أبان من الأهواز ، فوافاه فيمن معه من الجند وحصل أن قتل مفلح الساعد الأيمن للموفق فاختل نظام الجيش العباسي ، ولحقته الهزيمة فانسحب أبو أحمد الى الابلة ليعيد تنظيم صفوفه[٩٢] .

وفي موقعة أخرى جرت في الأهواز جرح وأسر أحد قواد الزنج الكبار وهو يحيى البحراني وأخذ الى سامراء حيث ضرب بالسياط على مرأى من الناس وقطعت يداه ورجلاه ثم ذبح وأحرق[٩٣] . ويروي الطبري[٩٤] قصة أسر يحيى بن محمد البحراني باسلوب جذاب ، فيقول ان البحراني لاقى العباسيين وهو في نفر قليل فأخذ درقته وسفه واحتزم بمنديل وأخذ يحارب ببسالة نادرة حتى أصابته ثلاثة سهام في عضديه وساقه اليسرى ، ولما رأى تعذر القتال وهو في هذه الحالة ركب سفينة لأحد أصحابه البيض و«اقعد معه فيها متطبباً يقال له عباد يعرف بأبي جيش» وحاول أن يعود الى معسكر صاحب الزنج ، غير أن قواه انهارت بمجرد أن وصل الى الضفة الغربية للنهر ، حيث سلمه الطبيب ـ ويقال جماعة من المارة ـ الى العباسيين . وكانت نهاية البحراني مؤثرة للغاية فقد أمر المعتمد بناء دكة بالحير - وهو موضع في سامراء ـ وجلس الخليفة يتفرج على العقوبة القاسية التي فرضت على عدوه اللدود «فضرب بين يديه مائتي سوط بتمامها ثم قطعت يداه ورجلاه... ثم خبط بالسيوف ثم ذبح وأحرق» .

لقى جيش أبي أحمد عنتاً شديداً في تلك الجهات الحارة المليئة بالاهوار وتفشت بين جنده الأوبئة والأمراض وكثر فيهم الموت ، فبقي مقيماً في الابلة حتى تحسن وضع جنده وبرءوا مما أصابهم من المرض فعاد الى باذاورد ـ وهي مدينة بين البصرة وواسط[٩٥] ـ ، حيث أصلح سفنه وجدد أسلحته وعبأ جنده تعبئة جديدة ليعيد الكرة على عدوه[٩٦] .

التحم الفريقان عند نهر أبي الخصيب التحاماً مستعراً كان من أثره أن قتل وجرح عدد عديد من كلا الجانبين ، وعلى الرغم من أن الموفق أصاب تقدماً ونجاحاً في بعض الأحيان ، الا أن الاخفاق كان نصيبه في النهاية . ذلك ان الزنج جمعوا كل قواتهم وبثوا الكمائن بين الأدغال لتصيد أصحاب الموفق ، ولم يشعر الا وقد أصبح مخيمه طعمة للنيران ، ووجد الأمير العباسي نفسه مضطراً الى التراجع الى واسط ، حيث انقض عنه من كان معه من أصحابه(٩٧) . أما هو فعاد الى سامراء يوم الجمعة ٢٦ ربيع الأول سنة ٢٥٩ (كانون الثاني سنة ٨٧٣م) تاركاً المولد خلفاً له في واسط ، وبذلك تبددت أحلام هذه الحملة .

وبانسحاب الموفق تحرر الزنج من خطر داهم ، وأخذوا يغيرون على المدن والقرى ، وارسل علي بن محمد قوات كبيرة الى الأهواز بقيادة علي بن أبان وسليمان بن جامع ، فلم تثبت قوات الوالي اصغجون الا قليلاً أمام هذا الجيش الكثيف ، ثم دخل علي بن أبان الأهواز في ٦ رجب سنة ٢٥٩ (مايس ٨٧٣م)(٩٨) . على أن حملات الزنج في هذه النواحي لم تكن بقصد الاحتلال الدائم ، بل في سبيل ضمان التموين والحصول على الغنائم ، وربما راودت صاحب الزنج أحياناً احلام ذهبية بالفتوح على نطاق واسع ، لكنه كان يدرك في النهاية أن سلامته وسلامة أتباعه رهينة بالقبوع في مستنقعاتهم وخنادقهم الحصينة بين الأدغال والقنوات فحسب(٩٩) . وهذا دليل على تروي علي بن محمد ويقظته وحسابه لكل أمر حسابه ، وكأنه كان يسير بحركته خطوة خطوة وفق أسلوب دقيق يتميّز دائماً بالمحافظة على خط الرجعة وسلامة الخطوط الخلفية من ناحية وعدم بعثرة قواته بعيداً من ناحية ثانية .

ولم تلبث الخلافة أن أرسلت هذه المرة شخصية قوية هو موسى بن بغا

التـركي الذي يعد من ألمع قواد هذا العصـر . كان بغا أبو موسى من قواد المعتصم وقد أتاحت له شجاعته ومقدرته أن يتزوج من بيت الخلافة ويصل الى أعلى مقام . بدأ موسى حياته العسكرية بداية موفقة واستغل الظروف السائدة حتى وصل الى منصب القيادة . وعند مغادرته سامراء في ١٧ ذي القعدة سنة ٢٥٩ (ايلول سنة ٨٧٣م) شيّعه الخليفة نفسه وخلع عليه . وكان يساعد موسى عدة قواد هم عبدالرحمن بن مفلح الذي ارسل الى الأهواز واسحق بن كنداج الذي اسندت اليه جبهة البصرة وابراهيم بن سيما الذي تحصن في باذاورد[١٠٠] . ودارت عدة معارك صغيرة مع الزنج برهن فيها هؤلاء على حسن استغلالهم لطبيعة الأرض والاستفادة من حرب الكمائن في الآجام والقصب والحلْفاء . وحاولت الجيوش العباسية الضغط على الزنج من عدة جهات وقطع التموين عنهم ، لكنها اخفقت في هذه العملية . وعلى الرغم من انتصار قواد الخليفة في عدة مواقع فرعية فقد ظلت الحرب مائعة أشبه ما تكون بحرب العصابات ، واستمرت سجالاً بضعة عشر شهراً اتخذ موسى خلالها واسط مركزاً له حتى عزل عن حرب الزنج وتولاها مسرور البلخي[١٠١] .

الزنج والصفارون:

تمر هنا فترة من الزمن لا نسمع خلالها عن أمر الزنج شيئاً ، ويبدو ان حركة الصفارين هي التي شغلت بال الخلافة آنذاك . فقد ظهر على مسرح التاريخ ثائر جديد هو يعقوب بن الليث الصفار ، الذي كان يتمتع بارادة حديدية وعقل نافذ ، سرعان ما مكناه من أن يصبح سيد بلاد فارس في وقت جد قصير . ففي سنة ٢٥٩ استولى يعقوب على نيسابور وكان قبل ذلك قد استولى على سجستان وهراة وبوشنج[١٠٢] ، وفي سنة ٢٦٠ دخل

طبرستان ، ومن ثم أخذت أطماعه تسفر عن نفسها ، مما أدى الى انتباه الخلافة الى خطره حتى أصدر مرسوم بلعنه على منابر الامصار وهو أسلوب في الدعاية كان له أبعد الأثر في قلوب العامة ، على أن ذلك لم يحل بين الصفار وبين تحقيق خطته ، فأرغم الخليفة على أن يعترف له بولاية خراسان وفارس وطبرستان وجرجان والري واذربيجان وقزوين ، ثم دخل رامهرمز في خوزستان سنة ٢٦٢ مما أطمعه في أن «يعبر الى باب السلطان[١٠٣]» ، ويبدو ان مطامع الصفار لم تقف عند حد الاستقلال بفارس فإنه لم يلبث أن تعدى واسط ووصل الى دير العاقول بين المدائن والنعمانية أي لم يبق بينه وبين بغداد سوى خمسة عشر فرسخاً (حوالي ٤٥ ميلاً) ، مما اضطر الخليفة الى الخروج بنفسه لمحاولة صده ، وهذا أسلوب آخر في الدعاية أدى الى استنكار جند الصفار أنفسهم حرب الخليفة فانسحبوا من الميدان مما أدى الى هزيمة قائدهم سنة ٢٦٢[١٠٤] .

ان قيام الصفار بهذه الحركة الخطرة وتكوينه امبراطورية فارسية في المشرق ، أفادا الزنج كثيراً ، لأن الموفق ركز كل همه لحرب الصفار ، فاستغل الزنج فرصة انسحاب قوات الخلافة من دجلة الأدنى ومدوا نفوذهم الى الشمال بمعاونة القبائل العربية المستقرة في البطائح جنوب واسط . ومما ساعد على نجاح الزنج استقالة موسى بن بغا من واجب حربهم بل ومن ولاية المشرق جميعاً ، مما أتاح لهم أن يعيدوا الكرة في الهجوم على الأهواز ، فدخلوها للمرة الثالثة وأفرطوا في القتل حتى قيل ان عدد القتلى بلغ خمسين ألفاً[١٠٥] .

وقد عقد حلف بين صاحب الزنج وعامل الصفار على الأهواز وهو رجل كردي يدعى محمد بن عبدالله ، وتم هذا الحلف فعلاً واتفق الثائران على

حرب قوات الخليفة في تلك الجهات سنة ٢٦٢ . غير ان العلاقات لم تلبث أن فسدت لأن الحلف لم يكن ينطوي ـ منذ البداية ـ على الإخلاص[١٠٦] ، ومن ثم استطاعت قوات الأمبراطورية هزيمة الزنج وجرح قائدهم علي بن أبان . الا ان الموفق لم يستطع الاستفادة من هذا النصر لانشغاله بحرب الصفارين ، مما مكن الزنج من أن يجمعوا شملهم وينالوا تفوقاً ملحوظاً في تلك الجهات .

أدرك الزنج قيمة التحالف مع الصفارين فألحوا على يعقوب في عقد حلف جدي ، لكن المفاوضات أخفقت لأن يعقوب نظر الى الزنج على أنهم مارقون من جهة ولأنه كان ذا نزعة فردية ومن ثم فضل العمل وحده . غير أن الضرورة العسكرية أدت الى هدنة طبيعية بين الطرفين دون اتفاق معين[١٠٧] . على أن موت يعقوب في ذي القعدة سنة ٢٦٥ (حزيران سنة ٨٧٩م)[١٠٨] ، قلب الأمور رأساً على عقب ، لأن خلفه وأخاه عمرو كان أقل كفاءة وصلابة منه ، فاستطاع الموفق اقناعه بعقد الصلح ومنحه كثيراً من الامتيازات ليتفرغ لحملته الكبرى على الزنج ، وبذلك ضمن الموفق تأييد الصفارين ، ومن ذلك اليوم أخذت كفة الدولة العباسية ترجح في حربها مع الزنج .

مراجع وملاحظات الفصل الرابع

(١) لسترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ج١ ص١٥ .

(٢) Noldeke P., 148.

(٣) Le Strange, the Lands of Eastern Caliphate, P., 26.

(٤) لسترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ج١ ص١٥ .

(٥) Fouad Safar, Wasit, P., 6.

(٦) Le strange, the Lands of Eas. Cal. P., 26.

(٧) Ibid, P., 41.

(٨) Noldeke, P., 148.

(٩) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٠٠ .

(١٠) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٩ .

(١١) ناصر خسرو : سفر نامه ص٩٥ .

(١٢) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٦٦ .

(١٣) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٨٩ ـ ٩٠ .

(١٤) البلاذري : ص٣٧٨ .

(١٥) الاصطخري : ص٧٩ .

(١٦) يلاحظ أن كثيراً من أنهار البصرة نسبت الى الأشخاص بالألف والنون وهي لغة بصرية مثال ذلك : حمدان ، عبدليان ، مغيرتان ، حمرانان ، محمدان ، مهلبان ، زيادان ، الخ . أنظر البلاذري ص٣٧٠ ـ ٣٧٥ .

(١٧) البلاذري : ص٣٧٠ .

(١٨) سهراب : عجائب الأقاليم ص١٣٦ .

(١٩) معجم البلدان : ج٢ ص٢٢٢ .

(٢٠) الاصطخري : ص٨١ـ ٨٢ .

(٢١) البلاذري : ص٣٠٢ .

(٢٢) المرجع نفسه : ص٣٠٠ .
(٢٣) المرجع نفسه : ص٣٠٠ .
(٢٤) المرجع نفسه : ص٣٠٢ .
(٢٥) Noldeke, P., 152.
(٢٦) الطبري : ج٨ ص١١٠ .
(٢٧) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٠ .
(٢٨) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٠ .
(٢٩) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٣ .
(٣٠) المرجع نفسه : ج٨ ص٨٠ و١٠٣ .
(٣١) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٣٣ وج٨ ص١٢ .
(٣٢) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٤ .
(٣٣) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٤ .
(٣٤) مروج الذهب : ج٢ ص٤٣١ ـ ٤٣٣ .
(٣٥) الطبري : ج٧ ص٥٤٦ .
(٣٦) ابن ابي الحديد : ج٨ ص٣١٣ .
(٣٧) الطبري : ج٧ ص٥٤٧ .
(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص١٩ .
(٣٩) الطبري : ج٧ ص٥٤٨ .
(٤٠) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٤٩ .
(٤١) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٤٩ .
(٤٢) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١٤ .
(٤٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص١٦٤ .
(٤٤) الطبري : ج٧ ص٥٤٨ .
(٤٥) ابن كثير ج١١ ص١٩ .
(٤٦) الطبري : ج٧ ص٥٥٦ ـ ٥٥٧ .
(٤٧) معجم الطبري : CCXXXVI
(٤٨) الطبري : ج٧ ص٥٥٤ .
(٤٩) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٥٥ .
(٥٠) Noldeke, P., 155.
(٥١) الطبري : ج٧ ص٥٦٦ ، ابن أبي الحديد ج٨ ص٣١٥ .
(٥٢) الطبري : ج٧ ص٥٦٦ .

(٥٣) ابن أبي الحديد ج٨ ص٣١٤ .
(٥٤) الطبري : ج٧ ص٥٩٥ .
(٥٥) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٩٥ .
(٥٦) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٨٩ .
(٥٧) ابن الأثير : ج٧ ص٩٤ ، تاريخ ابن الوردي ج١ ص٢٣٤ .
(٥٨) البلاذري : ص٣٦٥ .
(٥٩) ناصر خسرو : سفر نامه ص٩٩ .
(٦٠) ابن الأثير : ج٧ ص٩٤ .
(٦١) معجم البلدان ج٦ ص١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٦٢) الطبري : ج٧ ص٥٩٦ .
(٦٣) معجم البلدان : ج٢ ص٤١ .
(٦٤) تاريخ ابن الوردي : ج١ ص٢٣٤ .
(٦٥) الطبري : ج٧ ص٥٩٧ .
(٦٦) ابن الطقطقي : الفخري ص١٨٢ .
(٦٧) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١٥ .
(٦٨) الطبري : ج٧ ص٥٩٩ .
(٦٩) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١٦ .
(٧٠) ابن الأثير : ج٣ ص٩٦ .
(٧١) الطبري ج٧ ص٦٠٠ .
(٧٢) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣١٦ .
(٧٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٣٠ .
(٧٤) الطبري : ج٧ ص٦٠٥ .
(٧٥) الطبري : ج٧ ص٦٠٤ .
(٧٦) المرجع نفسه : ج٧ ص٦٠٢ .
(٧٧) ابن الأثير : ج٧ ص٩٧ .
(٧٨) الطبري : ج٧ ص٦٠٧ .
(٧٩) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٤٤٥ ، النجوم الزاهرة ج٣ ص٤٨ .
(٨٠) المسعودي : ج٢ ص٤٤٧ .
(٨١) المرجع نفسه : ج٢ ص٤٤٧ .
(٨٢) ديوان ابن الرومي : ص٤١٩ ـ ٤٢٧ .
(٨٣) Pellat. Le Milieu Basrien, P., 234..

(٨٤) الطبري : ج٧ ص٥٦٤ ـ ٦٥ .
(٨٥) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٥٢ .
(٨٦) انظر معجم الأدباء .
(٨٧) الطبري : ج٧ ص٦٠٤ .
(٨٨) المرجع نفسه : ج٧ ص٦٠٤ .
(٨٩) المرجع نفسه : ج٧ ص٦٠٤ .
(٩٠) المرجع نفسه : ج٨ ص٥ .
(٩١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص٢٨ .
(٩٢) الطبري : ج٨ ص٧ ـ ٨ .
(٩٣) معجم البلدان : ج٢ ص٣١ .
(٩٤) الطبري : ج٨ ص٩ .
(٩٥) ابن الأثير : ج٧ ص١٠٢ .
(٩٦) المرجع نفسه : ج٧ ص١٠٢ .
(٩٧) Noldeke, P., 161.
(٩٨) الطبري : ج٨ ص١٣ .
(٩٩) المرجع نفسه : ج٨ ص١٤ ، ابن الأثير ج٧ ص١٠٣ .
(١٠٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص٣١٢ .
(١٠١) الطبري : ج٨ ص٢٢ .
(١٠٢) ابن الأثير : ج٧ ص١١٥ .
(١٠٣) Noldeke, P., 261.
(١٠٤) الطبري : ج٨ ص٣١ .
(١٠٥) Noldeke, P., 261.
(١٠٦) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٤٤٣ .

الفصل الخامس

أبو أحمد الموفق
وحرب الزنج

أبو أحمد الموفق:

كانت نتيجة طلبات الأتراك في أن يتولى إمرة الجيش أحد أخوة الخليفة وألا يرأسهم واحد منهم ، لما كان بينهم من الخلاف ، أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل إمرة الجيش في صفر سنة ٢٥٧ . وفي يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم ، ثم ولاه الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن وبغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس . وفي ربيع الثاني خلع عليه الخليفة وسيره لحرب الزنج كقائد أعلى كما مر بنا[١] . ولم يلبث الموفق أن نال حظوة أخرى حين ولي العهد بعد جعفر المفوض بن المعتمد ، كما أضيف اليه ولايات جديدة كأصفهان وقُم والكرج والدينور وكسكر والري وزنجان وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان والسند ، وعقد لكل من الأميرين الموفق والمفوض لواءان أسود وأبيض[٢] .

ولما كان الخليفة المعتمد شخصية غاية في الضعف والخور ، فقد غدا الموفق هو الغالب على أمور الدولة جميعاً . ويقول صاحب الفخري[٣] في

ذلك : «وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو واخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين ،ولاخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء . وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته» . وبكلمة أخرى أصبح الموفق حاكم الامبراطورية الفعلي الذي جمع بين يديه جميع السلطات الادارية والمالية والعسكرية . بل لقد حجر الموفق على الخليفة اللاهي وقيد تصرفاته الى حد انه احتاج الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ، وقال هذا الشعر المتألم الذي يرينا كيف انحدرت الخلافة من عليائها فأصبح الخلفاء مجرد لعب بيد من له السلطان الفعلي .

أليس من العجائب ان مثلي
يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الأموال طرا
ويمنع بعض ما يجبى اليه[٤]

لقد كان الموفق صاحب عزيمة ثابتة وميل للغلبة والتنفذ ، وعلى يديه تمت الأمور الهامة في هذا العهد[٥] . ولم يكن كخصمه صاحب الزنج من عامة الناس ، بل كان من سلالة الخلفاء فأبوه المتوكل وأمه أم ولد رومية يبدو انها كانت اثيرة لدى زوجها[٦] . وكان أمراء البيت المالك في عهده قد استناموا الى اللذة وأغرقوا في الترف وأفرطوا في انتهاب اللذات وتبذير الأموال فأدركهم الوهن ، والقوا أمورهم الى الجواري والعبيد يصرفونهاكيفما شاءوا . ومن هنا كان أبو أحمد فلتة بين أفراد طبقته في الحزم والعزم والشجاعة النادرة والجد المتواصل . كان أبو أحمد رجلاً موفور النشاط لا

يعرف الهدوء ولا الاستقرار ، فكان يصرف شؤون الادارة الداخلية ، ويحارب اعداءه الزنج في البصرة ويقاوم توسع الطولونيين في الغرب ، ويجهد في دفع خطر الصفارين الذي طرق أبواب بغداد . وكان مثلاً نادراً في اليقظة والحزم ، رصد حركات ولده أبي العباس (الخليفة المعتضد فيما بعد) ، وضيق الخناق على أخيه المعتمد ، وراقب شخصيات الدولة من الأتراك مراقبة شديدة حتى تضاءل نفوذهم وطواهم تحت جناحيه . وكان في آخر حياته عليلاً مدنفا من شدة ما لاقى من التعب والمشقة ، وقد أعياه داء النقرس فلم يركن الى الراحة والدعة بل أشرف على شؤون الحرب وهو محمول على محفة من خشب يحمله أربعون رجلاً بالتناوب[٧] . ولعل خير ما يعبر عن همته قوله لحماليه ذات يوم «قد ضجرتم من حملي ، بودي أن أكون كواحد منكم احمل على رأسي وآكل وأنا في عافية[٨]» .

وكان الزنج قد استغلوا فرصة انشغال أبي أحمد بحرب الصفار وخلو منطقة دجلة الأدنى من القوات الامبراطورية ، فأخذوا يغيرون على القرى والنواحي . وعلم الزنج ان البطيحة خالية من رجال السلطان لانصراف مسرور وجيشه عنها هرباً من تقدم يعقوب الصفار نحو واسط ، فتوجهت قواتهم نحو البطيحة ودستميسان[٩] ، وأخذوا يتوسعون حول هذه الارجاء تساعدهم بعض القبائل العربية المستقرة في المستنقعات جنوب واسط[١٠] .

واستطاع سليمان بن جامع قائد الزنج أن يدخل واسط سنة ٢٦٤ فهجر السكان مدينتهم وخرجوا حفاة الأقدام هائمين على وجوههم فزعين «يأخذ أحدهم عمامته ورداءه فيشد بها رجليه ويمشي ، وضربت هذه المدينة بالنار[١١]» . ورافق هذا الحتلال غارات خاطفة على القرى المجاورة كقرية حسان والحوانيت وتل رمانا وطهيثا والرصافة ، أدت الى كثير من التلف

والاضرار في تلك الجهات[١٢] ، وحصلت عدة اشتباكات بين سليمان بن جامع وقواد الدولة كان النصر فيها يتأرجح بين الفريقين ، غير أن الزنج كسبوا في سنة ٢٦٥ (٨٧٩م) نصراً مؤزراً بدخولهم النعمانية فأحرقوا سوقها وأكثر منازلها . وبلغوا جرجرايا من أعمال النهرين الاسفل بين واسط وبغداد[١٣] ، أي على بعد أقل من سبعين ميلاً تحت بغداد ، بحيث فر السكان المذعورون الى العاصمة[١٤] .

وبينما كانت هذه الاحداث تترى ، كان الموفق في مكة حيث نفاه اليها الخليفة المهتدي ، فاستدعاه المعتمد حين عظم نفوذ الزنج وبان خطرهم . وهذا يدل على أمرين ، أولهما : ان المعتمد كان يدرك انه لا يستطيع بنفسه أن يبعد الخطر الذي يهدد الخلافة ، وثانيهما : انه كان يقدر الموفق حق قدره ويعرف له كفاءته العسكرية التي سرعان ما أسفرت عنها الأيام القادمة . والحق ان الموفق ما لبث أن غلب على الخليفة نفسه ـ كما أسلفنا ـ وأنعش آمال الأسرة العباسية في امكان تحقيق الاصلاح الاداري ، ذلك الاصلاح الذي لم يكن ممكنا على يد المعتمد الذي انشغل بغير تدبير المملكة وانقاد للهوه ولذاته مما جلب عليه نقمة المعاصرين وازدراءهم[١٥] .

كانت المهمة التي أنيطت بالموفق شاقة عسيرة ، فقد نفدت موارد الدولة من جراء حرب الزنج وتثاقل الناس عن دفع الضرائب ، واضطرب المشرق وتقاعس ولاته عن الانصياع للسلطان ودفع ما عليهم من الخراج[١٦] . واضطر الموفق الى الالتجاء لابن طولون يشكو اليه حاجته الى المال ، خاصة وقد تأخرت أموال مصر[١٧] . وقد أرسل الموفق في هذه المهمة نحريراً خادم المتوكل الذي طلب الى ابن طولون حمل الأموال والطراز والرقيق والخيل والشمع ، وفي نفس الوقت كتب المعتمد سراً الى ابن طولون يقول «ان

الذي حرك اخراج نحريراليك أبو أحمد وقد أنفذ نحريراً عيناً عليك ومعه كـتب الى سـائر قـوادك بـالتـضـريب عليك[١٨] » . وهذا دليل واضح على أن الانسجام لم يعد قائماً بين الخليفة وأخيه . أما ابن طولون ـ الذي كان يعلم أيهما الحاكم الحقيقي ـ فقد بعث مع رسول الموفق بمبلغ كبير من المال وشيّعه بنفسه الى العريش . غير ان الموفق لم يكتف بما أرسله ابن طولون فكتب اليه كتاباً جافاً شديد اللهجة يطلب منه المزيد ، وحاول أن يتخذ اجراء نحو عزله عن ولاية مصر ، وهكذا أصبحت الخصومة لا مناص منها بين الحليفين السابقين . ومما زاد العداوة اشتعالاً ذلك الكتاب العنيف الذي رد به ابن طولون يقول : ان في ولايته مائة الف جندي قد يستعين بهم في حرب الموفق ان أعوزه الأمر ، ويستطرد قائلاً : انه يستكثر من العدد والعمال لصيانة ولايته والدفاع عنها[١٩] .

وأوعز أبوأحمد الى موسى بن بغا بعزل ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور التركي والي دمشق[٢٠] ، وحين رفض هذا الاخير أن يقف في وجه ابن طولون سار ابن بغا بنفسه الى الرقة لقتاله[٢١] ، واتخذ ابن طولون للأمر عدته فبنى حصناً منيعاً في الجزيرة وجهز اسطولاً حربياً ضخماً[٢٢] . وأقام ابن بغا بالرقة عشرة أشهر يستعد للقتال غير أن ظروفه كانت سيئة فعاد الى العراق ، حيث توفي معتلاً سنة ٢٦٣ .

ازداد نفوذ ابن طولون وتوسعت مملكته بعد أن استتب له الامر فى الثغور الشامية . وحدث أن توفي ماجور والي الشام فاستولى ابن طولون على الرملة ودمشق وحمص بين سنتي ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ودخل انطاكية ثم استولى على طرطوس[٢٣] . وحين استقر في دمشق ورده كتاب من المعتمد ينبؤه بعزمه على الالتجاء اليه[٢٤] . ان قصة التجاء الخليفة الى ابن طولون تدلنا على

مقدار ما كان يعانيه من العنف والضيق ، لذلك انتهز المعتمد فرصة انشغال الموفق بحرب الزنج فخرج من سامراء متظاهراً بالصيد في جمادي الأول سنة ٢٦٩ ، وأقام يتصيد بالكحيل ثم اتجه نحو الرقة حيث أرسل ابن طولون من ينتظره هناك . غير ان عامل الموصل اسحق بن كنداج قبض عليه وحمله الى سامراء محجوراً عليه[٢٥] ، وظل من ذلك اليوم تحت رقابة أخيه الصارمة لا يملك من أمره قليلاً أو كثيراً حتى قال :

أصبحت لا أملك دفعا لما

أسأم من خسف ومن ذلة

تمضي أمور الناس دوني ولا

يشعرني في ذكرها قلتي

اذا اشتهيت الشيء ولوا به

عني وقالوا ها هنا علتي[٢٦]

واستغل ابن طولون حجر الموفق على الخليفة فأثار حفيظه الرأي العام ضده ، ووفق الى عقد اجتماع خطير حضره القضاء والفقهاء قرر خلع الموفق عن ولاية العهد ودعوة الناس الى حربه ، غير أن هذا القرار كان مناورة سياسية فحسب لم تؤد الى نتيجة ايجابية .

يفيض المؤرخون في وصف محاسن الموفق ومحامده فيذكرون الشيء الكثير عن حيويته ونشاطه وشجاعته ، ويقولون انه كان عادلاً حسن السيرة يجلس للمظالم فينصف الناس ، وانه كان عالماً بالادب والنسب وسياسة الملك[٢٧] . ولا ندري كيف نوفق بين كل ذلك وبين ما يرويه المؤرخون من أنه أمر كاتبه ذات يوم بصنع ثلاثين الف ثوب من جنس ثوب كان يعجبه[٢٨] ، في الوقت الذي كانت خزينة الدولة تشكو العوز[٢٩] .

نقطة التحول في حرب الزنج:

نستطيع أن نعتبر سنة ٢٦٦ (٨٧٩م) بداية قوة العباسيين وافول نجم الزنج كقوة عظيمة هددت المناطق الشرقية من أملاك الخلافة العباسية طوال العشرة سنوات الماضية .

ان انتهاء أمر الصفارين ترك للموفق مجالاً لتركيز قواه لخوض معركة رهيبة مع الزنج استخدم فيها كل ما في طوق الامبراطورية من العدد والعُدد . وكان الزنج قد دخلوا واسطاً والنعمانية وأصبحوا على بعد سبعين ميلاً جنوب بغداد ، أي أنهم أخذوا يهددون العاصمة فعلاً . على أن المد أخذ يتجه اتجاهاً آخر بعد سنة ٢٦٥ ، حين حشد الموفق كل موارد الدولة لانهاء هذه «الثورة السوداء» .

ان الاستعداد لحملة حاسمة ضد الزنج يتطلب خصائص غير عادية في قائدها ، اذ يجب أن يتحلى بالحذر فضلاً عن الشجاعة ، بجانب ضمان التموين الكافي والاموال الطائلة للصرف على الجند ، والبراعة في الدعاية ، والحذق في معرفة «طوبوغرافية» الارض ، وتوفير العدد الكافي من المهندسين المدنيين لنصب القناطر والجسور وهدم الاسوار .

لم يحضر الموفق بنفسه لحرب الزنج الا بعد مرور عام تقريباً ، بل وكل هذا الواجب ـ واجب طرد الزنج من المقاطعات الشمالية قرب واسط ـ الى ابنه أبي العباس في ربيع الآخر سنة ٢٦٦ . واستعرض أبو أحمد جيش ابنه وأبدى رضاه التام ، وكان هذا الجيش يتكون من عشرة آلاف من الفرسان والرجالة «في أحسن زي وأجمل هيئة وأكمل عدة[٢٠]» . وكان يرافق الجيش اسطول مكون من الشذا والسميرات وهي من السفن الحربية بجانب عدد وفير من المعابر وكلها متقنة الصنع ، وكانت هذه السفن ذات المجاذيف

مختلفة في الحجم وفي الغرض ، أما الكبرى فاستخدمت للمواصلات وكقلاع عائمة ، وأما الصغرى (وقسم منها يحمل عشرين جذافاً وآخر اربعين) فاستخدمت للهجوم الخاطف(٢١) . ومن ثم تحرك أبو العباس نحو جرجرايا بعد أن عبّأ جيشه تعبئة دقيقة ثم استقر في فم الصلح ـ وهو نهركبير فوق واسط(٢٢) ـ على مقربة من العدو .

كان أبو العباس شاباً في الثالثة والعشرين من عمره ، لذلك لم يقدره الزنج حق قدره وظنوا انه فتى حدث فاستصغروا شأنه(٢٣) ، غير أنه استطاع أن يجبر قائد الزنج سليمان بن جامع على الانسحاب والتقهقر في أول اصطدام جرى له معه ، وأبى الا أن يصلي صلاة الجمعة في واسط حيث استأمن اليه خلق كثير(٢٤) . وقرر أبو العباس أن يتخذ لنفسه معسكراً أسفل واسط ليأمن الزنج من فوقه ، وكان بعض قواده قد أشاروا عليه باتخاذ مقامه فوق واسط فامتنع عن ذلك وأعرض عن مشورتهم . أما الزنج فقد أخذوا بدورهم يعدون أنفسهم للموقعة القادمة فحشد سليمان بن جامع أصحابه وقسمهم ثلاث فرق ، سلكت كل واحدة منها طريقاً . غير ان جواسيس أبي العباس نقلوا اليه خطة الزنج هذه ، وأخبروه عن الكمائن التي أعدوها لاصطياد جند العباسيين . والحق ان الزنج كمنوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا ومثل هذا العدد في قس هثا ، ومن ثم دارت الهزيمة على الزنج في الموقعة التي جرت ما بين قرية الرمل والرصافة وانسحبوا الى طهيثا ، على حين عاد أبو العباس الى معسكره في العمر قرب واسط(٢٥) . وظل الزنج عشرين يوماً بعيدين عن الميدان مكتفين بارسال طلائعهم كل ثلاثة أيام وعلى رأسها الجبائي لمعرفة حركات الجيش العباسي . كذلك لجأ هذا القائد الزنجي الى حيلة بارعة للايقاع بجند أبي العباس ، فحفر آباراً عند نهر سنداد غطاها بسفافيد من الحديد تعلوها صحائف البواري(٢٦) على طول

الطريق الذي يسلكه الفرسان ، وقد لقى العباسيون متاعب شديدة من هذه الكمائن واضطروا الى تحاشي الطريق[٣٧] . ويبدو ان سليمان بن جامع شعر بقوة الجيش العباسي بدليل أنه امتنع عن الحرب مدة شهر آخر وارسل الى صاحب الزنج يطلب امداده بسميرات «لكل واحدة منهن أربعون مجذافاً ، فوافاه من ذلك في مقدخار عشرين يوماً أربعون سميرية في كل سميرية مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس[٣٨]» .

ويبدو ان قوة الزنج ازدادت الى حد كبير ، فقد أخذوا يظهرون في الميدان كل يوم ، وكانت خطتهم ـ مدة شهرين ـ تتلخص في الاغارة السريعة والانسحاب السريع ، يلجأون ـ خلال ذلك ـ الى ازالة القناطر واحراق السفن العباسية . وقد لقى الجيش العباسي أشد العنت من هذه الغارات ، وحين اوغل أبو العباس في نهر مازرون ووصل الى قرية الحجاجة ـ من قرى واسط ـ ليتعرف الطرق التي تسلكها سفن الزنج ، تكاثر حوله هؤلاء من كل جهة حتى بلغ عددهم ألفين وانسحب بعد أن تعرضت حياته للخطر[٣٩] . وقسم الزنج قواتهم الى ثلاث فرق تحصنت الاولى بقيادة سليمان بن جامع في طهيثا والثانية بقيادة الشعراني في سوق الخميس والثالثة بقيادة نصر السندي بالصينية ، وظلوا يقومون من هذه الجهات بغارات على المناطق المجاورة ، غير ان الجيش العباسي استطاع بعد حرب قصيرة أن يستولي على الصينية ويجلي الزنج عنها[٤٠] . كما أن أبا العباس أوقع بفرقة زنجية أخرى بعبدسي كان يقودها ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ ، وقد أسر الاول وقتل الثاني واستولى العباسيون على هذه الناحية . لكن العباسيين أخفقوا في محاولتهم احتلال مدينة المنيعة التي كان سليمان بن موسى الشعراني قد بناها كعاصمة زنجية في سوق الخميس في نواحي واسط[٤١] .

وانه على الرغم من الشجاعة التي أظهرها أبو العباس في هذه الحرب . وعلى الرغم من أنه كسب بعض الانتصارات المحلية واستولى على كثير من المواضع والقرى واستنقذ كثيراً من الاسرى والسبايا ، واستولى على بعض سفن عدوه وحصل على أموالهم وغنائم وفيرة ، فان الحرب ظلت مائعة دون نتيجة حاسمة حتى حضر أبو أحمد الموفق بنفسه في ١١ صفر سنة ٢٦٧ (تشرين الاول ٨٨٠م) لادارة دفة القتال .

الموفق يحتل المنيعة المنصورة والأهواز:

تناهى الى أبي أحمد أن صاحب الزنج أمر قواده بتركيز كل قواتهم وقذفها في وجه أبي العباس دفعة واحدة ، فغادر بغداد في سنة ٢٦٧ لنجدة ابنه في جيش ضخم واسطول مكون من الشذا والسميريات والمعابر[٤٢] . وسار محاذياً دجلة ماراً بالمواضع التالية : بغداد ـ الفرك ـ رومية ـ المدائن[٤٣] ـ السيب ـ دير العاقول ـ جرجرايا ـ قنى ـ جبل ـ الصلح ـ واسط . وعلى مقربة من واسط تلقاه أبنه فنقل اليه أنباء الحرب وأخبار الميدان وعلى ضوئها أخذ يرسم الخطة الحربية القادمة[٤٤] .

كان هدف الموفق أن يحتل المنيعة عاصمة الزنج قرب واسط على نهر يتفرع من دجلة يدعى براطق ، وفي المكان الذي يسمى «سوق الخميس[٤٥]» . وكانت المنيعة محصنة بسور عظيم يحيط بها ويمتد مسافة فرسخين (ستة أميال) . وتتلخص خطة الموفق لاحتلال هذه المدينة في أنه سار في النهر باسطوله وجعل الفرسان يحاذونه على الشاطىء الشرقي لدجلة ، حتى اذا ما وصل الى نهر براطق بث الفرسان على جانبيه ، وأمر ابنه أن يتقدم بالسفن على حين تبعه هو «في الشذا بعامة الجيش» ، أما

الرجالة فقد ساروا على الضفتين الى جانب الفرسان . وتقابل الفريقان على أبواب «المنيعة» فانهزم الزنج ودخل الجيش العباسي المدينة في ٨ ربيع الآخر سنة ٢٦٧[٤٦] ، وفي اليوم التالي أباح الموفق المدينة المحتلة لجنده فنهبوا ما فيها من أمتعة وأموال ، وهدم سورها وطم خنادقها وأحرق ما كان بقي فيها من سفن الزنج[٤٧] . وقد آلمت هذه الكارثة صاحب الزنج أشد الإيلام ، حتى عبر عن عظم الكارثة بقوله وهو يصف الكتاب الذي جاء بالنبأ أنه «ورد بقاصمة الظهر[٤٨]» . وعاد الموفق الى معسكره ببر مساور بعد أن استولى على ما في الرساتيق والقرى التي كانت في يد الشعراني من غلات الحنطة والشعير والارز فباعه وصرف ثمنه في اعطيات مواليه وغلمانه وجنده[٤٩] .

ثم تقدم الموفق الى طهيثا حيث تقع المنصورة وهي الحصن الثاني للزنج ، الذي بناه سليمان بن جامع ، وسلك نهر بردودا المؤدي اليها ، وقد اصطحب معه كثيراً من العمال والآلات التي تسد بها الانهار وتصلح الطرق وذلك في ربيع الآخر سنة ٢٦٧ . ومن الجدير بالذكر أن الموفق كان يحرص في كل تقدم على تأمين مواصلاته وضمان مؤخرته مما يجعل مهاجمته من الخلف أمراً مستحيلاً ، بالاضافة الى عنايته الدائمة ببناء السدود واستخدام الانهار حتى كان المهندسون المدنيون يلعبون دوراً هاماً في حركات جيشه[٥٠] . وفي ٢٧ ربيع الآخر دخل الموفق وأصحابه طهيثا وفي خلال الموقعة قتل الجبائي وكان من أعظم قواد صاحب الزنج وأكثرهم طاعة له[٥١] . واستخدم الموفق في هذه المعركة كل حذقه وبراعته في التنظيم الحربي ، فعبأ أصحابه وجعلهم كتائب يتلو بعضها بعضاً فرساناً ورجالة ، وسير معه السفن في النهر الذي يخترق مدينة طهيثا وهو نهر المنذر . وحين بلغ سور المدينة رتب أصحابه كلا في موضعه استعداداً للهجوم المقبل .

وكان سليمان بن جامع قد حفر أمام مدينة المنصورة خمسة خنادق وجعل أمام كل خندق سوراً ، لكن هذا التحصين لم يقف في وجه الموفق فلم يلبث أن اقتحم المدينة[٥٢] . أما سليمان بن جامع قائد الزنج فقد فر في نفر من أصحابه واستنقذ الموفق عدداً كبيراً من الأسرى قدره الطبري[٥٣] بعشرة آلاف وابن الجوزي[٥٤] بخمسة عشر الفاً ، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعة عشر يوماً وأمر بهدم سور المدينة وردم أنهارها[٥٥] .

ترك الموفق حزء من جيشه في واسط تحت إمرة ابنه هارون وسار الى الأهواز حيث سبقه أبو العباس الى هناك . وحين بلغ هذا الخبر صاحب الزنج كتب الى المهلبي ـ وكان في الأهواز مع ثلاثين الفاً ـ يأمره بأن يترك كل ما معه من المؤن والمتاع ويتوجه اليه في الحال . ولما كان صاحب الزنج ينوي تركيز كل قواته في مكان واحد فقد أمر بهبوذ بن عبدالوهاب بترك أعماله في الفندم[٥٦] والباسيان[٥٧] والتوجه اليه . ومن ثم وقع كل ما في هذه المناطق من الحبوب والتمر والمواشي في يد الموفق ، فكان في ذلك قوة له وضعف للزنج ، لأنهم أخذوا منذ الآن يقاسون قلة الغذاء وصعوبة التموين . واستطاع الموفق في الوقت نفسه فتح السدود والسكور التي شيدها الزنج في دجلة العوراء والانهار الاخرى لعرقلة سير السفن ، ثم دخل جنديسابور ومنها الى تستر حيث ارجع السيادة العباسية الى هذه النواحي ، كما اتصل بمحمد بن عبيداللّه الثائر الكردي وعقد معه صلحاً فأمن جانبه . وهكذا أخذت مدن الأهواز تنهار سريعاً أمام هجمات الموفق فاستولى على المنطقة كلها «وكشف الزنج عنها[٥٨]» .

رحل الموفق عن قصر المأمون في الجانب الغربي من دجيل الأهواز متجهاً نحو «فرات البصرة» حيث مركز الزنج الرئيسي ، مارا بقورج العباس

والجعفرية والبشير حتى وصل نهر المبارك أحد الانهار المتفرعة من شط العرب يوم السبت ١٥ رجب سنة ٢٦٧ (١٨ شباط ٨٨١م) . وكان قد أمر ولديه أبي العباس وهارون أن يسبقاه الى هذا الموضع لكي يجابه الزنج بقواته كلها في ملحمة فاصلة . وكان أول ما فعل الموفق بعد أن استقر في معسكره الجديد قرب البصرة ان كتب كتاباً الى صاحب الزنج يدعوه فيه الى «التوبة والانانية الى اللّه تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم واخراب البلدان والامصار واستحلال الفروج والأموال وانتحال ما لم يجعله اللّه له أهلاً من النبوة والرسالة ، ويعلمه ان التوبة له مبسوطة والأمان له موجود . فان هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله ودخل في جماعة المسلمين محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه وكان له به الحظ الجزيل في دنياه[٥٩] » . غير ان الموفق لم يتسلم أي رد على هذا الكتاب الذي لا بد وقد زاد من اصرار صاحب الزنج على المضي في حركته ، خاصة وقد طفح بالتحدي والتهجم .

اهتم الموفق بمشكلة التموين اهتماماً عظيماً ، لأنه كان يعلم حق العلم ان اغداق الطعام والأرزاق على جنده هو ، وحده الدافع لهم على المضي في هذه الحرب بحماس في تلك المناطق الوعرة . لذلك كتب الى النواحي يطلب الميرة ، فلم تلبث القوافل أن وافت بها ، مما حسن أحوال الجنود ودوابهم[٦٠] . وانهالت على أبي أحمد ـ كما يقول المؤرخون ـ كثير من الكتب يطلب فيها الزنج الأمان ، ووافاه الف زنجي فضمهم الى جيشه واجرى لهم الأرزاق .

اقتصر سلطان الزنج من الآن على مدينة المختارة وما جاورها من أرجاء أبي الخصيب ، وقبل أن يشن الموفق هجومه عليها قرر أن يتخذ لنفسه

معسكراً حصيناً على مقربة من حاضرة الزنج ، وفي ٢٤ رجب اختارمكاناً على ضفة نهر جطي من الأنهار المتفرعة من شط العرب (من جانبه الشرقي) ، فرحل اليه الناس واصلحت الطرق وانشئت القناطر[٦١] ،وظل أبو أحمد في هذا الموضع يعد العدة دون حرب حتى ١٤ شعبان سنة ٢٦٧ . ويبدو أن هذا المعسكر لم يكن صالحاً لادارة الحركات العسكرية ضد قاعدة الزنج فانتقل أبو أحمد في منتصف شعبان الى معسكر جديد بازاء مدينة الزنج على ضفة شط العرب ، وبنى هنا مدينة دعاها الموفقية[٦٢] ، لكي يكون على مقربة من الزنج ، ولكي يستطيع ضرب حصار اقتصادي على «المختارة» فيقطع عنها المؤن ويحولها إلى معسكر[٦٣] .

ولكي يضمن الموفق التموين ، شجع التجارة وكتب الى عماله يأمرهم بارسال الصناع والتجار بالاموال والبضائع ، ومن ثم نمت الموفقية وكثرت فيها الاسواق والمنازل وازدحمت بالسكان[٦٤] . كذلك أخذ العمال يحملون الضرائب الى بيت المال الذي أوجده الموفق في مدينته هذه ، وفي الوقت نفسه بعث برسله الى سيراف وجنابا من مدن الخليج الفارسي يطلب الاكثار من بناء السفن ، لكي يستخدمها في الحرب والتموين والحصار . كذلك انتدب الموظفين الاكفاء والكتاب والمحاسبين المهرة للعمل في دواوين مركزه الجديد هذا[٦٥] .

ازدهرت مدينة الموفقية بسرعة ، فلم يكد يمضي شهر واحد حتى أخذت القوافل والسفن تحمل كميات هائلة من الذخائر والمؤن والأمتعة اليها . وَقَدِمَ التجار يحملون صنوف التجارات والبضائع ، فشيدت الأسواق الواسعة وامتلأت بالباعة والمتجهزين من كل مكان[٦٦] . وانتهزت السفن فرصة اعادة الموفق المواصلات النهرية بعد أن قطعها الزنج نحو عشر

سنوات ، فأخذت تتدفق على نواحي البصرة بكثرة . كذلك بنى الموفق مسجداً جامعاً كبيراً وأمر الناس بإقامة الصلاة فيه(٦٧) ، واتخذ دورا لضرب النقود فأصدر الدنانير والدراهم لكي تستخدم في التبادل التجاري(٦٨) . لقد ضمت هذه الحاضرة الجديدة « جميع المرافق وسيق اليها صنوف المنافع حتى كان ساكنوها لا يفتقدون بها شيئاً مما يوجد في الامصار العظيمة القديمة . وحملت الأموال وأدر للناس العطاء في أوقاته فاتسعوا وحسنت أحوالهم ورغب الناس جميعاً في المصير الى المدينة الموفقية والمقام فيها »(٦٩) .

ووزع أبو أحمد قواته في هذا المعسكر توزيعاً دقيقاً فجعل نصيراً عند نهر جوي كور ، وزيرك التركي ما بين نهر أبي الخصيب ونهر المغيرة ، أما مضارب أبي أحمد وأبنيته فكانت عند دير جابيل ، ووضع فرقة كبيرة مكونة من الاتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزنج على نهر هطمة بقيادة مولاه راشد ، كذلك ترك فرقة يقودها مسرور البلخي على نهر سندادان ، وأخرى يقودها الفضل ومحمد ابنا موسى بن بغا على نهر هالة ، على حين رابط موسى دالجويه وبغراج التركي على نهر جطي ، ومعنى ذلك أن الموفق وزع جيشه في منطقة واسعة جداً تكون « كماشة » تحيط بمدينة الزنج ،مما سهل حصارها ومنع وصول التموين اليها(٧٠) . غير ان الزنج أثبتوا بأنهم خصم لدود رغم كل هذه التدابير ، أغاروا ذات ليلة على احدى هذه الفرق العباسية ونكلوا بها وأسروا جماعة من جندها ، مما دعا الموفق الى أن يشدد الرقابة والحراسة على أطراف معسكره ، كذلك قاسى الموفق أشد المتاعب من الكمائن التي طالما برع الزنج في نصبها للفرق العباسية بين الادغال والنخيل ، فقد كانت الفرق الزنجية تتصدى للسفن القادمة بالميرة من الأهواز ليلاً فتستولي عليها ، على الرغم من هذه الاجراءات الدقيقة التي اتخذها الموفق(٧١) ، بل أن الزنج كثيراً ما استولوا على طرق المواصلات التي

تنتقل عبرها القوات الامبراطورية ، وكثيراً ما هاجموا مؤخرة الجيش العباسي .

على أن خطة الموفق التي كانت ترمي الى فرض «الحصار الاقتصادي» على الزنج أخذت تأتي أكلها على مر الأيام ، وقد أدت حراسة القوات العباسية لضفاف الأنهار وطرق المواصلات الى منع وصول الاساطيل من الخليج الفارسي ، مما أدى الى كثرة المؤن في المعسكر العباسي وندرتها في معسكر الزنج ، وما حلت سنة ٢٦٨ حتى أخذ الزنج يقاسون المجاعة وندرة الاقوات مما أدى الى شل قوتهم واضعاف صفوفهم على نحو ما سنرى .

سقوط المختارة:

استغرق حصار المختارة عاصمة الزنج الفترة الواقعة بين سنتي ٢٦٧ - ٢٧٠ أي حتى نهاية الثورة . ففي ذي الحجة سنة ٢٦٧ (سنة ٨٨١م) قام أبو أحمد بهجوم على هذه المدينة ، واستطاعت قواته أن تشق طريقها اليها وتعمل فيها التخريب الا أنها انسحبت في نفس الليلة . وكانت المشكلة التي تعترض الموفق في محاولته احتلال المختارة أنها محصنة بالأسوار التي كان يعلوها الزنج بالمجانيق والعرادات والمقاليع ، فضلاً عن أنها كانت محصنة بنهر أبي الخصيب «وهو نهر عريض غزير الماء»[٧٢] ، كان أصحاب الموفق يجدون صعوبة في اقتحامه . وفي هذا الهجوم استطاع الجند العباسيون أن يثلموا عدة ثلمات من سور مدينة الزنج بمعاولهم وآلاتهم . وعلى الرغم من أن أصحاب الموفق أوغلوا في المختارة حتى وصلوا الى ميدانها الرئيسي واستطاعوا أن يقتلوا ويحرقوا المنازل والأسواق ، فانهم عادوا مع الغروب يحملون معهم رؤوس القتلى . وفي ١٦ ربيع الآخر سنة ٢٦٨ عبر الموفق الى

المختارة مصطحباً ابنه أبا العباس وخيرة قواده وضم الى كل منهم المهندسين والعمال وأمرهم أن يعملوا على هدم السور دون أن يدخلوا المدينة . ورافق هذه الحملة كثير من السفن المكتظة بالرماة لحماية مؤخرة المهاجمين ، وكانت خطة الموفق تهدف الى الاحاطة بالمدينة من جميع أطرافها فأرسل ابنه أبا العباس الى ركن من أركانها وقصد هو موضعاً من السور بين نهر متكى ونهر ابن سمعان وأرسل قائده صاعداً الى فوهة نهر جوي كور يساعده زيرك ، على حين كلف مسروراً البلخي بأن يتجه ناحية نهر الغربي . وقد وفقت هذه الفرق الى هدم عدة مواضع من سور «المختارة» ودخل العباسيون المدينة فعلاً غير عابئين بنصيحة قائدهم الأعلى ، وتوغلوا في طرقها ومسالكها يحرقون ويخربون . الا أن جند العباسيين تشعبت بهم المسالك فخرج عليهم الزنج من مكامنهم فتقهقر أصحاب أبي أحمد نحو شط العرب لا يلوون على شيء بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والأموال والأسلحة . ومما يدل على عظم الكارثة التي لحقت بالجيش العباسي أن الموفق جمع جنده «وعذلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره والافتيات عليه في رأيه وتدبيره وتوعدهم بأغلظ العقوبة ان عادوا لخلاف أمره»[٧٣] .

أدرك الموفق أنه من المتعذر عليه العبور الى معسكر صاحب الزنج في الأوقات التي تهب فيها الريح وتتحرك أمواج شط العرب ، ففكر أن يتخذ له معسكراً جديداً في الجانب الغربي من هذا النهر بين دير جابيل ونهر المغيرة وأمر بقطع النخيل وتحصين الموضع بالخنادق والأسوار ليأمن غارات عدوه . وقد جزع علي بن محمد لقرب معسكر الموفق من مدينته ، فأمر أصحابه أن يعرقلوا أعمال البناء ، واستغل هبوب الريح وعصفها فرمى جيش الموفق الذي انتقل الى الجانب الغربي بكل قواته وسبب له هزيمة منكرة ، فلم ير الموفق بدا من هجر معسكره الجديد والاكتفاء بمحاولة هدم السور .

والحق ان خطة أبي أحمد اقتصرت في هذه المرحلة على غارات خاطفة تهدف الى ازالة القناطر وتخريب الجسور التي تصل المختارة بما جاورها ، وازالة وسائل الدفاع مستخدماً السلالم والمناشير وآلات الحصار والنار اليونانية والرصاص المذاب بمساعدة الحراقات (سفن النار)[٧٤] . واستطاع الجند العباسيون ازالة قنطرتين كبيرتين على نهر منكي كان يسلكها الزنج لمهاجمة مؤخرة جيش الموفق ، وحمل أبو أحمد على سور المدينة فهدم جزء منه حتى وصل الى داري ابن سمعان وسليمان بن جامع من كبار قواد الزنج فهدمهما وانتهب أصحابه ما فيهما ، كذلك هدم سوق المدينة المطلة على شط العرب التي دعاها الزنج «الميمونة»[٧٥] .

ركز الموفق همه في هدم المسجد الجامع في المختارة ، فدافع عنه الزنج دفاع المستميت ووقفوا صفوفاً متراصة يتلقون الطعنات والضربات «حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط فيجذبه الذي الى جنبه ويقف موقفه اشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر أصحابه»[٧٦] ، غير أن العباسيين استطاعوا بعد عدة أيام وبفضل عدد كبير من السلالم وآلات الحصاد أن يهدوا المسجد ويحملوا منبره الى الموفقية فرحين جذلين . واستمر الموفق يهدم السور ما بين داري انكلاي والجبائي (من زعماء الزنج) ، كما انهارت دواوين الزنج وانتهبت خزائنهم ، وكان ذلك في يوم ذي ضباب كثيف حتى لم يعد الرجل يرى صاحبه[٧٧] .

وحين قدر الموفق أن النصر بات قاب قوسين أو أدنى . أصابه سهم فى صدره أطلقه عليه عبد رومي يدعى قرطاس في ٢٥ جمادي الأول سنة ٢٦٩ ، مما عاقه عن القيادة فتقهقر الى الموفقية . وهكذا اضطربت شؤون القيادة

العباسية ، وتوقفت العمليات الحربية فترة أتاحت للزنج أن يستجموا ويعيدوا تنظيم صفوفهم . وما كاد الموفق يتماثل للشفاء في شعبان ٢٦٩ ويعاود حرب الزنج ، حتى جاءته الاخبار بهرب المعتمد من سامراء ملتجئاً الى ابن طولون ، ومن ثم انصرف عن الحرب ليحبط مؤامرة الخليفة واستطاع اعادته الى عاصمته كما تقدم .

ظلت قلعة الزنج الرئيسية ـ المختارة ـ تقاوم ثلاث سنوات كوامل الحصار المضرب عليها من قبل الموفق ، والحق أن الجراح التي أصابت الموفق أخرت أمر احتلال المختارة فصلاً كاملاً[٧٨] . ولا ريب أن جواسيس صاحب الزنج أخبروه بحراجة موقف الموفق فأعاد ما تهدم من سور المدينة وعبأ قواته تعبئة جديدة[٧٩] .

وفي شعبان ٢٦٩ (٨٨٣م) هاجم الموفق المختارة من جديد بعد أن تخلص من مشاكله ، فتمكن أصحابه من احراق بعض قصور صاحب الزنج وانتهابها ، وكاد موقف الزنج يسوء للغاية لولا أن عمد قائدهم الى الحيلة فأجرى الماء على الأراضي التي كان يسلكها الجيش العباسي ، كما حفر الخنادق لتعوق الجيش المهاجم ، واهتم باشادة التحصينات حول قصره بصورة خاصة ، وقد حاول الموفق ردم هذه الخنادق فدارت بين الفريقين حرب عنيفة كثر فيها القتلى والجرحى . وبذل الزنج قصارى جهدهم لدفع الخطر عن دار زعيمهم خاصة وعن مدينتهم عامة ، واستعانوا بالحجارة والنشاب والمقاليع والمجانيق والعرادات والرصاص المذاب[٨٠] .

ولكي يتلافى الموفق هذا المأزق الحرج أعد ظلالاً من خشب للسفن الصغيرة وألبسها جلود الجواميس التي غطيت بالخيش المطلي بصنوف العقاقير والأدوية التي لا تشتعل فيها النار ، ثم ملئت هذه السفن بالرماة

والنفاطين وارسلت لانجاز عملية احراق دار صاحب الزنج[٨١] . ونجحت هذه الخطة فعلاً فقد اقتربت السفن من دار محمد بن يحيى الكرنبائي وهي بجوار دار صاحب الزنج في الضفة الشرقية من نهر أبي الخصيب عند التقائه بشط العرب ، واحرقت هذه الدار ثم القيت النيران على قصر علي بن محمد وما جاوره من البيوت فالتهمتهما وأتت على ما كانت تحويه من الأمتعة والأثاث ، ثم انتهب العباسيون ما لم تأت عليه النار «من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحلي»[٨٢] أما صاحب الزنج فهرب لا يلوي على شيء مخلفاً داره ودور أصحابه طعمة للنيران والنهب[٨٣] . وللمرة الثانية أفلت النصر من يد الموفق حين جرح جرحاً خطيراً[٨٤] ، ثم مرض بداء النقرس مدة شهرين تقريباً فتوقفت الحرب ، واستطاع الزنج تحصين مواضعهم[٨٥] ، فأعادوا القناطر وأنشأوا السدود في نهر أبي الخصيب لمنع السفن العباسية من التقدم ، كما بنوا جسرين ضخمين على هذا النهر ، الا أن الموفق استطاع ازالة القناطر والأبراج الحجرية من فوهة أبي الخصيب بمجرد أن أبل من مرضه[٨٦] .

كثرت في هذه المرحلة حوادث استئمان الزنج الى الموفق ، فقد لجأ اليه سنة ٢٦٨ جعفر بن أحمد السجان ومعه جماعة كبيرة[٨٧] ، وفي سنة ٢٦٩ استأمن محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج ووزيره[٨٨] ، بل ليقال ان (انكلاي) ابن صاحب الزنج نفسه طلب الأمان لولا أن أثناه أبوه عن عزمه[٨٩] ، وأرسل سليمان بن موسى الشعراني ـ من قواد الزنج البارزين ـ يطلب الأمان فتبعه جمع كبير . ويروى ان الموفق اتبع مع هؤلاء سياسة لينة سخية فضمهم الى قواده واكرم وفادتهم وأظهرهم أمام جند الزنج بمظهرفخم كاسلوب من أساليب الدعاية ، كان له أثر بعيد على معنويتهم ، فترك كثير منهم معسكرهم لاجئين الى الجيش العباسي جماعات[٩٠] . ومن أهم اللاجئين

في هذه الفترة شبل بن سالم أحد قواد الزنج ، وقد أسند اليه الموفق مهمة مهاجمة معسكر الزنج في فرقة المستأمنين(٩١) . ترى ما هو السبب الذي يعلل هذه الظاهرة ؟

لقد تكالبت جميع القوى وتكاتفت للعمل على ضرورة ثورة الزنج والقضاء عليها ، فهناك أصحاب الأراضي وملاك العبيد الذين ظلوا حتى النهاية يصرون على أسنانهم غيظاً ويبذلون شتى المساعي لاحباط هذه الحركة التي هددت مصالحهم في الصميم ، وهناك المتطوعون الذين نظروا الى الثورة على أنها زندقة وزيغ ديني وان التطوع للقضاء عليها يعني «الجهاد» في سبيل الدين ، كل هؤلاء بجانب قوى الدولة الهائلة ومواردها الضخمة وعددها وعتادها موا تملكه من وسائل القمع والدعاية . على ان قطع سبل التموين عن الزنج وتعريضهم للجوع القاتل كان عاملاً جدياً في اضعاف صفوفهم . لقد منع الموفق الاعراب من نقل المؤن الى الزنج ، وحال دون جلب السمك الى عاصمتهم(٩٢) . وهكذا أخذ السود ـ ومن معهم من البيض ـ يشعرون على مر الأيام بقلة الطعام ، كما انقطع ورود الخبز اليهم ، حتى اذا ما أهلت سنة ٢٦٨ كان الحصار الاقتصادي قد اشتدت وطأته مما دفع الكثيرين من الزنج الى الاستئمان . لقد بذل صاحب الزنج كل ما في طوقه من الجهد في سبيل توفير الغذاء للثوار ، غير أن الموفق قطع عليه جميع السبل حتى شمل الحصار البر والبحر والنهر «فلم يكن لهم ـ أي الزنج ـ من سبيل الى بر ولا بحر فضاقت عليهم المذاهب واشتد عليهم الحصار(٩٣)» . وكان جماعة من أعراب بني تميم ممن ساعدوا الزنج في دخول البصرة يحملون الى المختارة الطعام والابل والغنم ، فهاجمهم رشيق غلام أبي العباس واستولى على كل ما كانوا يحملونه ، وبذلك سدت على الزنج جميع مسالك التموين . ونكل الموفق بهؤلاء الاعراب ومثل ببعضهم أشد التمثيل لكي يتحاشى الباقون مساعدة

الزنج في الحصول على القوت . وسرعان ما ظهر أثر هذا الحصار في الجيش الزنجي كأشد ما يكون «فأضر بهم الحصار وأضعف أبدانهم فكان الأسير منهم يؤسر والمستأمن يستأمن فيسأل عن عهده بالخبز فيعجب من ذلك ويذكر ان عهده بالخبز منذ سنة وسنتين[٩٤]» . ويروى ابن الجوزي[٩٥] ـ على ما في كلامه من المبالغة والتهويل ـ ان الزنج أكلوا لحوم البشر لشدة جوعهم ونبشوا القبور فأكلوا لحوم الموتى . وحين أدرك أبو أحمد أي نجاح حققته طريقة «التجويع» هذه أخذ يتابعها كأسلوب رئيسي من أساليب حربه ، حتى انضم اليه كثير من الجياع الذين تفرقوا في القرى والانهار يبحثون عن القوت من السمك والتمر ، بل ان أبا أحمد أخذ يتصيدهم أسراً وقتلاً . ونحن وان كنا لا نستطيع أن ننكر ان كثيراً من الزنج قد استأمنوا الى الجيش العباسي فعلاً ، الا أن العدد لم يكن كما زعم المؤرخون ، كما اننا لا يمكن أن نعتبر اولئك الذين تصيدهم أبو أحمد مستأمنين ، بل مجرد أسرى حرب .

أخذ الموفق يقوم بهجمات سريعة خاطفة قبيل هجومه النهائي على المختارة ، وذلك لالقاء الرعب في قلوب الزنج المحاصرين الذين نال منهم الجوع والاعياء الى حد كبير . وحين تهدمت منازل هذا الموضع الجديد وأحرق بعض الدور والسوق الرئيسية . وعندها أدرك الموفق ان موعد الهجوم النهائي قد آن أوانه فأخذ يعد العدة لهذه النهاية المترقبة التي انتظرها بفارغ صبر .

وفي ذي القعدة سنة ٢٦٩ عزم الموفق على احتلال مدينة الزنج بالجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب بعد أن أصبحت كومة من الانقاض على أثر حوادث الحرق والهدم المتعددة التي أصابتها على يد العباسيين ،

فأمر باعداد الاسطول من دجلة والبطيحة وجميع النواحي القريبة وكون قوة من البحارة تبلغ عشرة آلاف يتناولون راتباً شهرياً من بيت المال ووزعهم على الشذاوالسميريات والرقيات وجميعها من السفن الحربية الضخمة بالاضافة الى سفن التموين ونقل الركاب والمعابر وعدا الجريبيات والزوارق التي ملئت بالملاحين . ثم قسم الموفق المشاة الى فرق يقود كلا منها قائد كبير ، فتولى أبو العباس قيادة فرقة من ثمانية آلاف أنيط بها واجب مهاجمة الجانب الغربي من أبي الخصيب ، وقاد راشد عشرين ألفاً لمهاجمة الجانب الشرقي ، وأوعز الى فرقة ثالثة بالسير بمحاذاة نهر أبي شاكر أسفل أبي الخصيب ، وفرقة رابعة بأن ترابط على فوهة نهر جوي كور أسفل أبي الخصيب أيضاً . أما الفرسان فقد جعلهم وراء المشاة ، وأمر الجميع بالزحف نحو قصر صاحب الزنج الذي كان مركز المقاومة الرئيسي . وبدأ الزحف في عشية يوم الاثنين ٧ ذي القعدة براً ونهراً وكان مجموع الجيش الزاحف من الفرسان والمشاة خمسين ألفاً ، على حين بلغ الاسطول مائة وخمسين سفينة . وفي اليوم التالي استمر القتال واشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس انتهت بدخول العباسيين دار صاحب الزنج واحراقها بعد أن دافع عنها علي بن محمد وصحبه دفاع المستميت ، ونهب ما كان قد بقي فيها من المتاع وحملت نساء صاحب الزنج وأولاده وبناته الى الموفقية[٩٦] ، حيث لا بد أن يكونوا قد لقوا مصيراً مؤلماً وان اغفل المؤرخون ذلك .

لجأ صاحب الزنج وجماعته الى قلعة أخرى هي دار المهلبي ـ أحد قواده ـ وهناك دارت معركة حامية أخرى استغرقت نهاراً كاملاً انتهت بانتصار العباسيين انتصاراً جزئياً بعد أن كادوا يتعرضون للهزيمة . لكن الزنج نالوا ضربة مؤلمة حين تسللت خمس سفن عباسية الى مؤخرة المعسكر الزنجي بنهر أبي الخصيب فأحرقت مخازن التموين التي كانت آخر مورد يتقوت منه

الجيش المحاصر «فضعف أمره ـ أي صاحب الزنج ـ وداخله الضعف[٩٧]» .
ويبدو ان أبا أحمد أدرك أنه كان يحارب خصماً قوياً عنيداً فطلب نجدة من العاصمة وصلت بقيادة كاتبه صاعد بن مخلد في ٢ ذي الحجة ، وكانت مكونة من عشرة آلاف محارب ، كما أن لؤلؤاً أخذ قواد ابن طولون المنشقين عليه قدم لنصرة بي أحمد في جيش عرمرم من الفراغنة والاتراك والروم والبربر والسودان يوم الخميس ٢ محرم سنة ٢٧٠ ، واستقبل الموفق هذا الجيش بحفاوة بالغة وأنعم على قواده وأغرقهم بالهدايا[٩٨] . ونلاحظ دائماً أن سخاء أبي أحمد واغداقه على الجند خطٌ من الخطوط الرئيسية في سياسته العسكرية ، ونستطيع أن نقدر تأثير هذه السياسة اذا قارنا حالة الجند العباسيين الجيدة من ناحية الغذاء والكساء والعتاد بحالة الزنج الذين عضهم الجوع وأودى بقواهم . والحق أنه كان للفرقة التي قدم بها لؤلؤ أثر عظيم في انتصار العباسيين حتى لقد نسب الى لؤلؤ قتل صاحب الزنج وكسب النصر النهائي ، وعبّر أحد الشعراء عن ذلك بقوله :

كيف ما شئتم فقولوا
انما النصر للولو[٩٩]

وتتابعت على أبي أحمد الاموال والمير من البلدان حتى رخصت الأسعار في الموفقية ، وزادت هذه الرفاهية من حماس الجند العباسيين . ولما كانت حركة الزنج قد وصمت بأنها خروج على الدولة التي اعتبرت نفسها ممثلة للشرع وحامية للدين ، فقد أخذت النجدات تترى على المعسكر العباسي من كل حدب وصوب ، فتطوع أحمد بن دينار عامل آيذج ونواحيها (من كور الأهواز) مع جيش كبير من الفرسان والمشاة . كما تطوع ألفا رجل من أهل البحرين بقيادة رجل من عبد القيس وهي القبيلة التي ينتمي اليها صاحب الزنج كما أسلفنا ، وظل المتطوعون من فارس وغيرها يتتابعون دون

انقطاع[١٠٠] . والغريب ان حركة التطوع لم تبدأ يوم كانت ثورة الزنج في عنفوانها ، وحين عجزت الدولة عن ايقاف تيارها ، بل كانت بعد أن اتضح مصير هذه الثورة وتبددت قواها ، وهو أمر سهل التعليل اذا علمنا ان العمال وحكام الاقاليم كان يهمهم أن ينالوا عطف الدولة ورضاها بعد أن أدركوا رجحان كفتها .

أعد الموفق الاسطول ونظم المشاة وأكثر من الفرسان لفائدتهم المحققة في تلك المواضع الوعرة الضيقة المسالك . ونشر جيشه على جبهة واسعة ، ثم أمر الجميع بالزحف في وقت معاً نحو مركز صاحب الزنج حين تعطى الاشارة وهي تحريك علم أسود والنفخ في بوق ضخم الصوت[١٠١] . واحتشد الزنج للقاء الجيش الزاحف ودارت بين الفريقين رحى معركة رهيبة برهن فيها الزنج على شدة الشكيمة والرغبة الصادقة في المقاومة ، وقد وقع كثير من الصرعى من الفريقين ، وكان النصر للجيش العباسي في النهاية بعد أن أسر أهل علي بن أبان وأخواه الخليل ومحمد وأهل سليمان بن جامع الذين نقلوا الى الموفقية . كما أسر الكثير من جنود الجيش الزنجي[١٠٢] . وكان ميدان هذه المعركة نهر جوي كور (الذي يدعى اليوم في أبي الخصيب جيكور) ، واستولى العباسيون على مدينة الزنج وأطلق من كان فيها من الأسرى . ولاذ صاحب الزنج وقواده بموضع على نهر السفياني ـ من أنهار أبي الخصيب ـ أعد لمثل هذا اليوم[١٠٣] .

مرت بضعة أيام دون حرب استعاد فيها الفريقان راحتهما وتنظيم صفوفهما ثم بدأت الحرب بزحف جديد في يوم السبت ٢ صفر سنة ٢٧٠ . وكان الزنج قد عادوا ـ أثناء انسحاب الجيش العباسي ـ الى مدينتهم وأقاموا بها . وفي هذا الهجوم أسر سليمان بن جامع أبرز قواد الزنج وقائدان آخران

هما ابراهيم بن جعفر الهمداني ونادر الأسود فنقلا الى المعسكر العباسي[١٠٤] . وعلى الرغم من انتصار الجيش العباسي في هذه المواقع فإن الزنج ظلوا يحاربون ببسالة اذهلت العباسيين ، وكثيراً ما كروا على أصحاب الموفق فأزالوهم عن مواضعهم[١٠٥] . الا أن عزيمة الزنج ما لبثت أن انهارت حين جاءت الأنباء بمصرع علي بن محمد ، وحمل أحد أصحاب لؤلؤ رأسه فسرت الفرحة في المعسكر العباسي « وأمر أبو أحمد أن يكتب الى أمصار المسلمين بالنداء في أهل البصرة والابلة وكور دجلة والأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج... أن يؤمروا بالرجوع الى أوطانهم[١٠٦] » .

لقد كان مقتل صاحب الزنج حدثاً ضخماً اهتز له الموفق فرحاً وسروراً ، حتى أنه خر ساجداً بمجرد أن أبصر برأسه يحمله غلام لؤلؤ فسجد معه سائر قواده . وحمل الرأس على قناة وطيف به كي يشاهده اولئك الذين طالما خشوا بأسه[١٠٧] . ويصف لنا الطبري فرحة الموفق بمقتل علي بن محمد فيقول[١٠٨] : «انصرف الموفق ورأس الخبيث منصوب بين يديه على قناة في شذاة يخترق بها نهر أبي الخصيب والناس من جنبي النهر ينظرون اليه حتى واتى دجلة... ثم سار ورأس الخبيث بين يديه على القناة وسليمان بن جامع والحمداني مصلوبان في الشذا حتى وافى قصره بالموفقية» .على حين يذكر المسعودي[١٠٩] ان صاحب الزنج حمل الى أبي أحمد فسلمه الى ابنه أبي العباس وأمره بتعذيبه «وجعله كردناجا على النار وجلده يتفرقع حتى هلك» . لكن المسعودي لا يلبث أن يؤكد رواية الطبري ، ويقول ان الذي عذب بهذه الطريقة الوحشية هو قرطاس العبد الذي رمى أبا أحمد بالسهم كما أسلفنا ، وكذلك يؤيد هذه الرواية التنوخي[١١٠] .

انهـارت صـفوف الزنـج بعد أن صـرع قـائدهم ، فـاسـتـسلم آلاف منهم عداعشـرات الآلاف ممن ذهبوا قتلا وغرقا وأسرا . وكانت هناك فرقة يقودها زنجي يدعى درمويه قد تفرقت في قرى البطيحة ، تمارس الحرب على طريقة العصابات دون أن تدري المصير الذي آلت اليه ثورتهم ، وحين تناهى الخبر الى درمويه طلب الامان فاجابه الموفق الى ذلك هو ومن معه . وبقيت هناك طائفة من الزنج تبلغ الالف عداً هاموا على وجوههم في القفار لا يلوون على شيء فمات أكثرهم عطشاً ، أما الباقون فتصيدهم الاعراب فأعادوهم الى ما كـانوا من العـبـودية(١١١) ، كـأن لـم يكن هناك شيء ، وكـأنـهم لم ينالوا من متاعب هذه الحرب الطويلة سوى أنهم خرجوا من عبودية ليدخلوا أخرى لعلها كانت أشد وأقسى .

أصدر الموفق بياناً الى العالم الاسلامي يـهيب فيه بسكان المدن الفارين أن يعودوا الى ديارهم ، وعيّن ولاة جدداً على هذه المناطق التي اختل نظامها الاداري نحـواً من أربع عـشـرة سنة(١١٢) . أمـا في بغـداد فـقـد اسـتـقـبل النبـأ بالسـرور من جانب أولي الامر ، ومـا كـاد أبو العبـاس يصل الى هذه المـدينة يحمل رأس صاحب الزنج بين يديه يوم السبت ١٨ جمـادي الأول سنة ٢٧٠ حتى استقبله شعراء البلاط بالمدح والثناء ، وانحدر القائد في دجلة الى قصر الخلافة وسط مظاهر الزينة وقباب النصر(١١٣) . ولا نريد هنا أن نأتي على ما قيل من الشـعر بهذه المناسبة ، لانه لا يـنطوي على أية حقيقـة تاريخية أو صدق شعور ، ولم يكن سوى تعبير عن وجهة النظر الرسمية في ثورة الزنج .

يغلو المؤرخـون في ذكـر اعـداد القتلى الذين ذهبـوا ضحيـة الحـروب الطويلة خلال هذه الفتـرة ، فيقول الصولي(١١٤) «قتل من المسلمين ألف ألف وخمـسمـائة ألف... وقـتل في يوم واحـد بالبـصـرة ثلاثمـائة ألف» . ويقـول

المسعودي[١١٥] ان المعاصرين تكلموا في مقدار ما قتل في هذه الحروب «فمكثر ومقلل ، فأما المكثر فانه يقول أفني من الناس ما لا يدركه العد ولايقع عليه الاحصاء... والمقلل يقول أفني من الناس خمسمائة ألف وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً اذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط» . وهكذا تبدو المبالغة واضحة جداً في الارقام التي أوردها المؤرخون في هذا المجال ، ويجب على الباحث أن ينظر اليها بحذر شديد بل ولا يكون متجنياً اذا نبذها كلية .

مراجع وملاحظات الفصل الخامس

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص٨ .
(٢) المرجع نفسه : ج٥ ص٢٦
(٣) ابن الطقطقي : الفخري ص١٨٣
(٤) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص١٥٨ .
(٥) الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية ص٣٣١ .
(٦) المسعودي : ج٢ ص٤٦٠ .
(٧) المرجع نفسه : ج٢ ص٤٦٠ .
(٨) ابن الأثير : ج٧ ص١٥٨ .
(٩) الطبري : ج٨ ص٢٥ ، ابن الأثير ج٧ ص١١٦ .
(١٠) Noldeke, P., 162.
(١١) ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص٤٥ .
(١٢) الطبري : ج٨ ص٣٨ ـ ٣٩ ، ابن الأثير ج٧ ص١٢٥ .
(١٣) معجم البلدان : ج٣ ص٨٠ ، تاريخ ابن الوردي ج١ ص٢٢٨ .
(١٤) المنتظم : ج٥ ص٥٠ .
(١٥) المسعودي : ج٢ ص٤٥٦ ـ ٤٦١ عن المعتمد وأخبار لهوه .
(١٦) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص١٩ .
(١٧) المرجع نفسه : ص١٩ .
(١٨) المرجع نفسه : ص١٩ .
(١٩) المرجع نفسه : ص٢١ (انظر نص الكتاب ص٢١ ـ ٢٤) .
(٢٠) المقريزي : الخطط ج١ ص٣١٩ .
(٢١) الرقة مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي (معجم البلدان ج٤ ص٢٧٢) .
(٢٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٣١٩ .
(٢٣) المرجع نفسه : ج١ ص٣٢٠ .

(٢٤) المرجع نفسه : ج١ ص٣٢٠ ، الطبري ج٨ ص١٠٧ .
(٢٥) المرجع نفسه : ج١ ص٣٢٠ ـ ٢١ ، المرجع نفسه ج٨ ص١٠٨ .
(٢٦) السيوطي : تأريخ الخلفاء ص٢٤٥ .
(٢٧) ابن الأثير : ج٧ ص١٥٩ .
(٢٨) الفخري : ص٢٢٨ .
(٢٩) كان أبو أحمد الموفق يؤمن بالتنجيم ، ويصطحب معه في الحرب منجمين منهم أبو معشر . وكان يستشيرهم في أشياء في ضميره فيمنح من تصدق نبوءته الجوائز . وكان يختبر صدق المنجمين فيخفي شيئاً ثم يسألهم عنه (التنوخي : نشوار المحاضرة ج١ ص٢٦٨) .
(٣٠) ابن الأثير : ج٧ ص١٣٤ .
(٣١) الطبري : ج٨ ص٥٧ ، ٦١ .
(٣٢) معجم البلدان : ج٦ ص٣٩٩ .
(٣٣) ابن الأثير : ج٧ ص١٣٤ .
(٣٤) ابن أبي الحديد : ج٨ ص٣٤٤ .
(٣٥) الطبري : ج٨ ص٥٦ .
(٣٦) بواري جمع بارية وهو لفظ يطلقه العامة حتى اليوم على صحائف تنسج من القصب تستخدم للبناء ولأغراض أخرى .
(٣٧) الطبري : ج٨ ص٥٧ .
(٣٨) المرجع والجزء والصفحة ذاتها .
(٣٩) المرجع نفسه : ج٨ ص٥٩ .
(٤٠) المرجع نفسه : ج٨ ص٦٠ .
(٤١) المرجع نفسه : ج٨ ص٦١ ـ ٦٢ .
(٤٢) المرجع نفسه : ج٨ ص٦٢ .
(٤٣) رومية المدائن : مدينة بناها انوشروان سنة ٥٤١م قرب المدائن على غرار انطاكية حتى ليقول المؤرخون انه جعلها صورة مطابقة لهذه المدينة .
(٤٤) الطبري : ج٨ ص٦٢ .
(٤٥) المرجع نفسه : ج٨ ص٦١ .
(٤٦) المرجع نفسه : ج٨ ص٦٣ .
(٤٧) ابن الأثير : ج٧ ص١٣٧ .
(٤٨) الطبري : ج٨ ص٦٤ .
(٤٩) المرجع نفسه : ج٨ ص٦٤ .
(٥٠) Noldeke. P., 166.
(٥١) الطبري : ج٨ ص٦٧ .

(٥٢) ابن كثير : ج١١ ص٤٠ .
(٥٣) الطبري : ج٨ ص٦٨ .
(٥٤) المنتظم : ج٥ ص٥٨ .
(٥٥) ابن كثير : ج١١ ص٤١ .
(٥٦) الفندم : موضع بالأهواز (معجم البلدان ج٦ ص٤٠١) .
(٥٧) الباسيان : قرية بخوزستان (معجم البلدان ج٢ ص٣٦) .
(٥٨) تاريخ ابن الوردي : ج١ ص٢٣٩ .
(٥٩) ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص٥٩ .
(٦٠) الطبري : ج٨ ص٧٩ .
(٦١) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٠ .(٦٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان (مخطوط) ج٦ ورقة ٢٠١ .
(٦٣) المرجع نفسه : ج٦ ورقة ٢٠٢ .
(٦٤) مرآة الزمان : ج٦ ورقة ٢٠٢ .
(٦٥) الطبري : ج٨ ص٧٩ .
(٦٦) مرآة الزمان ج٦ ورقة ٢٠٢ - ابن الأثير ج٧ ص١٤٠ .
(٦٧) مرآة الزمان : ج٦ ورقة ٢٠٢ .
(٦٨) الطبري : ج٨ ص٧٩ .
(٦٩) المرجع نفسه : ج٨ ص٧٩ .
(٧٠) المرجع نفسه : ج٨ ص٧٨ - ٧٩ .
(٧١) المرجع نفسه : ج٨ ص٨٠ .
(٧٢) المرجع نفسه : ج٨ ص٨٨ .
(٧٣) المرجع نفسه : ج٨ ص٩٣ .
(٧٤) Noldeke, P., 169.
(٧٥) الطبري : ج٨ ص١٠٦ ، ابن الأثير ج٧ ص١٥٣ .
(٧٦) الطبري : ج٨ ص٧٦ .
(٧٧) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٦ .
(٧٨) Muir, the Caliphate, P., 546.
(٧٩) الطبري : ج٨ ص١٠٩ .
(٨٠) المنتظم : ج٥ ص٦٧ .
(٨١) الطبري : ج٨ ص١١١ .
(٨٢) نفس المرجع : ج٨ ص١١٢ .
(٨٣) المنتظم : ج٥ ص٦٧ .
(٨٤) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٩ .

(٨٥) المنتظم : ج٥ ص٦٧ .
(٨٦) الطبري : ج٨ ص١١٦ .
(٨٧) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٠ .
(٨٨) ابن الجوزي : ج٥ ص٦٧ .
(٨٩) الطبري : ج٨ ص١٢٦ .
(٩٠) ابن الأثير : ج٧ ص١٤٠ .
(٩١) الطبري : ج٨ ص١٢٨ .
(٩٢) المرجع نفسه : ج٨ ص٩٤ .
(٩٣) المرجع نفسه : ج٨ ص٩٦ .
(٩٤) المرجع نفسه : ج٨ ص٩٧ .
(٩٥) المنتظم : ج٥ ص٦٣ ـ انظر الطبري ج٨ ص١٣٠ .
(٩٦) المنتظم : ج٥ ص٦٧ .
(٩٧) ابن الأثير : ج٧ ص١٥٧ .
(٩٨) الطبري : ج٨ ص١٣٣ .
(٩٩) المرجع نفسه : ج٨ ص١٤٥ .
(١٠٠) المرجع نفسه : ج٨ ص١٣٧ .
(١٠١) ابن الجوزي : ج٥ ص٧٠ .
(١٠٢) الطبري : ج٨ ص١٣٨ ـ ابن الجوزي ج٥ ص٧٠ .
(١٠٣) المرجع نفسه : ج٨ ص١٤١ .
(١٠٤) ابن الجوزي : ج٥ ص٧٠ ، ابن الأثير ج٧ ص١٦٢ .
(١٠٥) الطبري : ج٨ ص١٠٥ .
(١٠٦) تاريخ ابن الوردي : ج١ ص٢٤٠ .
(١٠٧) المرجع نفسه : ج١ ص٢٤٠ .
(١٠٨) الطبري : ج٨ ص١٤١ .
(١٠٩) مروج الذهب : ج٢ ص٣٦٠ .
(١١٠) التنوخي : نشوار المحاضرة ج١ ص٧٧ .
(١١١) الطبري : ج٨ ص١٤٢ .
(١١٢) التنوخي : ج١ ص١٢٦ ـ ١٢٧ .
(١١٣) ابن الجوزي : ج٥ ص٧٠ .
(١١٤) النجوم الزاهرة : ج٣ ص٤٨ .
(١١٥) مروج الذهب : ج٢ ص٤٤٧ .

الفصل السادس

تنظيمات الزنج

المختارة عاصمة الزنج:

يجد الباحث مشقة كبيرة في محاولته الحديث عن التنظيمات التي أوجدها الزنج لحكم المناطق التي دخلت في حوزتهم وتنظيم علاقاتهم الداخلية والخارجية . ومصدر الصعوبة ان المؤرخين أسهبوا أيما اسهاب في وصف الحركات العسكرية التي دارت بين الجيشين العباسي والزنجي وكادوا يهملون الحديث عن النواحي المدنية التي انبثقت عن ثورة الزنج . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية نظر المؤرخون المعاصرون الى ثورة الزنج نظرة عداء وازدراء وأظهروها على أنها حركة عصيان قام بها العبيد ضد الدين والدولة ، ومن ثم لم يعمدوا الى ايراد ما يفيد قيام أي نوع من التنظيم المدني أو الاداري أو المالي في البقعة الشاسعة التي حكمها الزنج مدة أربع عشرة سنة . وثمة صعوبة أخرى تجابه الباحث هي انه لم تبق أية آثار عمرانية أو مخلفات أخرى تعيننا في هذه الدراسة ، عدا قطعتين نقديتين سنشير اليهما ، وعدا بعض الاشارات في بطون الكتب التاريخية وردت على سبيل الصدفة ـ ان صح التعبير ـ في ثنايا التفاصيل المملة عن النواحي الحربية .اننا سنحاول هنا أن نقدم كل ما تيسر جمعه من المعلومات عن هذا الموضوع

الغامض لنثبت بأن ثورة الزنج لم تكن ـ كما يخيل للبعض ـ مجرد غارات غير منظمة هدفها التخريب والنهب ، بل ان هذا البحث الموجز سيكشف عن وجود محاولات جدية بذلها صاحب الزنج لاقامة نظام داخلي دقيق يحكم بموجبه دولته القصيرة العمر ، ويخضع له العلاقات المدنية والعسكرية بين الزنج أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين جيرانهم من ناحية ثانية .

لقد فتح الزنج مناطق شاسعة شملت القسم الأدنى من العراق كله بالاضافة الى خوزستان ، فدخلت تحت حكمهم البصرة والابلة وواسط وعبادان وجبى والأهواز ، بل أنهم دخلوا النعمانية وجرجرايا أي أصبحوا على بعد أقل من سبعين ميلاً تحت بغداد . هذا بالاضافة الى سيطرتهم على المواصلات البرية والنهرية في جميع هذه الجهات ، واحتلالهم لمنطقة البطيحة . وانه على الرغم من أن حكم الزنج لهذه المناطق لم يكن ثابتاً ودائماً ، فقد عمدوا ـ خلال بقائهم فيها ـ الى اخضاعها لسلطتهم الادارية وتعيين موظفين ينوبون عن « صاحب الزنج » في تصريف شؤونها العامة .

لقد اتخذ الزنج لأنفسهم مركزاً للحكم يصح أن نعتبره عاصمة ما دام يضم تشكيلاتهم المركزية . ومن الجدير بالذكر ان علياً بن محمد غيّر محل اقامته واتباعه عدة مرات ، فقد أقام في بداية حركته في برنخل ـ وهو موضع في فرات البصرة ـ في مكان يدعى قصر القرشي ، لكنه انصرف باتباعه في نفس السنة (سنة ٢٥٥) الى سبخة في آخر أنهار البصرة هي سبخة أبي قرة بين نهري أبي قرة والحاجر فأقام هناك وأمر أصحابه أن يبنوا الأكواخ لسكناهم ، في هذا الموضع الذي يتوسط النخل والقرى والعمارات[١] . غير أنه ما لبث أن غيّر مركزه سنة ٢٥٦ فتحول الى الضفة الغربية من نهر أبي الخصيب[٢] ، وعلى مر الأيام أخذ الزنج يشيدون في هذا الموضع عاصمتهم

«المختارة» التي ربما سميت بهذا الأسم نسبة الى مكانها المختار من دون الأماكن الأخرى .

انشأ صاحب الزنج المدينة «المختارة» على ضفة نهر أبي الخصيب الغربية وحصّنها وأحاطها بالخنادق والأسوار . وكانت أبنية هذه المدينة مشيدة من سعف النخيل أو الطين وهما المادتان اللتان ما زال أهل البصرة الريفيون يستخدمونها في بناء بيوتهم . ويبدو من مجرى حوادث ثورة الزنج ومحاولات الموفق لاحتلال هذه المدينة ، ان قصور صاحب الزنج ودور اتباعه الكبار من القواد والموظفين والمنشآت العامة كانت مبنية من الآجر أو الطابوق ، لأنها صمدت كثيراً أمام هجمات العباسيين ، الى حد ان هؤلاء بذلوا مجهودات كبيرة في سبيل هدمها مستخدمين النار وآلات الحصاد والهدم . انه لم يبق للاسف ما يشير الى موضع المختارة على وجه الدقة ، غير انها كانت تقع ـ على وجه التقريب ـ في الزاوية بين شط العرب ورافده أبي الخصيب ، أو باب سليمان الحالي ، ولا بد ان المدينة قد اتسعت فيما بعد فشملت جميع المنطقة الممتدة على ضفة نهر أبي الخصيب ، بدليل ان علياً بن محمد أقام حين تهدمت دوره المطلة على شط العرب في منازل واغلة في نهر أبي الخصيب حيث اتخذ لنفسه سكناً منزل أحمد بن موسى القلوص[٣] . بل ان مدينة الزنج ما لبثت أن شملت الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب كذلك كما سنرى .

وكان من الطبيعي أن تكون المختارة على هيئة قلعة حربية لتستطيع الصمود في وجه الغارات المتلاحقة التي كان يشنها عليها العباسيون . وبالاضافة الى أن المختارة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً بنهري شط العرب وأبي الخصيب من الجهتين الشمالية والشرقية ، فانها أحيطت بالأسوار ،

وبذلك امتنعت على الجيش العباسي وظلت صامدة أمام هجماته ثلاث سنوات كاملة . ومما زاد في مناعة المدينة وقوة تحصينها ، انها كانت تقع في وسط أشجار النخيل الكثيفة ، وتخترقها جداول وأنهار فرعية تعيق تقدم الجيش الزاحف ، مثال ذلك نهر ابن سمعان الذي يقع في وسطها وعليه تقع دار محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج ووزيره(٤) . وكانت المختارة محاطة بخندق واسع غزير المياه تتلوه عدة أسوار ، بدليل ان الزنج حين يئسوا من دفع أصحاب الموفق عن السور الأول انتقلوا الى سور آخر يليه(٥) . وكانت أسوار المختارة حصينة عالية مبنية من الاحجار تعلوها المجانيق والعرادات ويحرسها رماة النشاب والقسي ، ومما يدل على ارتفاع هذه الاسوار ان العباسيين اخفقوا مرات عديدة في ارتقائها واستعملوا لهذا الغرض السلالم . وكانت أسوار المختارة تحيط بها من جميع الجهات حتى من جهتها المطلة على شط العرب ، ونستطيع أن نتتبع سيرها ، فنجد انها كانت تحيط المدينة من جهة نهر أبي الخصيب وتمر بدار انكلاي (ابن صاحب الزنج) ودار الجبائي ونهر منكي ونهر سمعان ، ثم يستمر السور حتى نهري جوي كور والغربي وموقعهما في أسفل نهر أبي الخصيب . وكان صاحب الزنج قد حفر خندقاً عريضاً بين هذين النهرين ، واشتدت عنايته بتحصين الجزء الواقع بين دار الكرنبائي ـ أحد قواده ـ ونهر جوي كور ، لأن أكثر منازل الزنج كانت في هذه الجهة . ويبدو ان الخندق والسور كانا يستمران بعد نهر الغربي حتى يصلان الى موضع الدباسين في أسفل نهر الغربي(٦) .

كانت المختارة كما أسلفنا مدينة واسعة تحوي القصور والدور والميادين والدواوين والسجون والشوارع والسكك . ومما يدل على اتساع المدينة ان أصحاب الموفق دخلوها مرة وأوغلوا فيها فاختلفت بهم طرقها وتشعبت بهم مسالكها وفجاجها حتى صعبت عليهم العودة(٧) . ومن

المعلومات الضئيلة التي يمدنا بها الطبري نستطيع أن نقول ان المختارة كانت على غرار المدن الاسلامية الاخرى في طراز بنائها وتخطيطها الهندسي . فهناك في وسط المدينة يقع المسجد الجامع الذي اتخذه الزنج للصلاة ، مما ينفي عنهم التهمة التي الصقها بهم بعض المؤرخين وهي تهمة الزندقة والمروق . وكان المسجد الجامع واسعاً أنيقاً حسن البناء وقد هاجمه الموفق فدافع عنه الزنج دفاع المستميت بضعة أيام ، غير أن العباسيين هدموه وحملوا منبره الى الموفق جذلين مسرورين[٨] . ولا بد أن هذا المسجد الجامع كان يجتمع فيه صاحب الزنج بأصحابه ليؤمهم في الصلاة ، ولا بد أنه كان يلقي عليهم خطبه من فوق هذا المنبر . ويبدو أن المختارة حوت عدة مساجد ، بدليل أن رجلاً من الزنج استأمن إلى الموفق ٢٦٩ وأتاه معه بمنبر كان لصاحب الزنج في الجانب الغربي . وكان المسجد الجامع يتصل عن طريق شارع بمصلى اتخذه علي بن محمد يحضره في أيام الأعياد[٩] . ونجد اشارات الى وجود ميدان واسع في المختارة تحف به البيوت والقصور وتشرع منه الطرق والسكك . ولقد شهد هذا الميدان عدة اشتباكات حربية بين الفريقين المتحاربين ، وحين أخذ الجيش العباسي يتوغل في المدينة حفر صاحب الزنج فيه عدة خنادق لتحول دون تقدم الجيش الغازي .

وكان قصر صاحب الزنج أفخم مباني المختارة وأكثرها أناقة ، وقد بني على ضفة شط العرب الغربية عند الزاوية التي يكونها مع رافده نهر أبي الخصيب (أو نهر الأتراك) ، وما زال هذا الموقع من أجمل المواقع الطبيعية في ريف البصرة ، ويعتبره سكان أبي الخصيب الحالية متنزهاً لهم ، لما يتوفر فيه من المياه والنخيل والبساتين النضيرة . وقد اعتنى الزنج ببناء قصر زعيمهم الذي اتخذ دار امارة في الوقت نفسه ، حتى أن بابه الضخم نقل من

حصن أروخ أحد حصون البصرة . ومما يدل على اناقة هذه البوابة وجمالها وضخامتها أن أحمد الموفق قلعها حين احتل المختارة ونقلها الى بغداد . ومن الجدير بالذكر أن خلفاء المسلمين وامراءهم طالما لجأوا الى هذه الطريقة للاستفادة من الأبواب والآثار التي يعثرون عليها في المواضع الأخرى حين يقومون باشادة بناء جديد، وقد فعل ذلك الحجاج حين شيد واسط والمنصور حين بنى بغداد . وكان القصر يطل على نهري شط العرب وأبي الخصيب معاً وله مسناة لرسو السفن ، وهو محصن بسور عالٍ يحميه من الهجمات تعلوه المجانيق والمقاليع والعرادات وتحرسه دوماً فرقة من شجعان الزنج . وكان الى جانب قصور صاحب الزنج قصو ودور أخرى مطلة على شط العرب ، يليها ستارات ظلل بها علي بن محمد داره ووضع الستور على أبوابه ، ومن الطريف أن قصر صاحب الزنج هذا تميز برواشين أو فتحات ونوافذ تطل على الخارج ، يتوسطه فناء واسع على طراز البيوت الشرقية آنذاك ، وتحيطه ساحة واسعة ، أما مدخله الرئيسي فكان يطل على ميدان . وقد أحرق قصر صاحب الزنج في الغارات التي شنها أبو أحمد الموفق وهدم ونهب ما كان فيه من الأمتعة والأموال والذخائر والأثاث .

ونجد الى جانب قصر صاحب الزنج قصوراً أخرى في المختارة أهمها دار انكلاي بن صاحب الزنج التي كانت الى جوار قصر أبيه ، ودور الجبائي وابن سمعان وسليمان بن جامع وكلهم من قواد الزنج الكبار. وقد دخل أصحاب الموفق دار مصلح الزنجي فأحرقوها ونهبوها وسبوا نساءه وولده الذين كانوا يعيشون فيها . وكانت دار الهمداني محصنة قد نصبت عليها العرادت وحفت بأعلام بيض كتب عليها اسم صاحب الزنج وكان يحيط بها سور حصين ، وقد أحرقها النفاطون العباسيون ونهبوا ما كانت تحويه من الأثاث والمتاع ، كذلك أحرقوا ما حولها من دور الزنج . ويبدو أن قصر بهبوذ بن عبدالوهاب

ـ من قادة الزنج ـ كان أنيقاً نسبياً وكان يتكون من عدة دور وأبنية اضافية . ولعل قصر الكرنبائي كان من أفخم المباني في الجزء الشرقي من عاصمة الزنج ويقع مقابل قصر صاحب الزنج على ضفة نهر أبي الخصيب الشرقية عند التقائه بشط العرب ، وامتازت هذه الدار ببرج عالٍ مشيد . ومن الجدير بالذكر أن الزنج انتقلوا الى الضفة الشرقية من النهر المذكور حين دمر العباسيون الجهة الغربية من مدينتهم ، وكانت لهم هناك عدة قصور ودور ومبانٍ منها دار الكرنبائي هذه ودار المهلبي الحصينة ودار أبي عيسى المطلة على شط العرب وفيها سوق الغنم ، وقد اتخذها صاحب الزنج سكناً له في الضفة الشرقية في أواخر سنة ٢٦٩[١٠] .

اهتم الزنج بتعمير عاصمتهم حتى شملت كما قلنا ضفتي نهر أبي الخصيب الشرقية والغربية ، ولكي يربطوا بين جانبي النهر ويسهلوا على جيوشهم الانتقال أشادوا على هذا النهر الجسور والقناطر . فقد شيد صاحب الزنج قنطرة من خشب الساج على نهر أبي الخصيب أقام في وجهها سداً في الماء لمنع مرور سفن العباسيين . وقد سببت هذه القنطرة متاعب شديدة للسفن العباسية ، ويقول الطبري[١١] ان أبا أحمد «أمر نصيرا... بالقصد لقنطرة كان الخائن ـ يعني صاحب الزنج ـ عملها بالساج على النهر المعروف بأبي الخصيب دون الجسرين اللذين كان اتخذهما عليه وأمر زيرك باخراج أصحابه مما يلي دار الجبائي لمحاربة من هناك... فتسرع نصير فدخل نهر أبي الخصيب في أول المد في عدة من شذواته فحملها المد فألصقها بالقنطرة ودخلت عدة من شذوات موالي الموفق وغلمانه ممن لم يكن أمر بالدخول فحملهم المد فألقاهم على شذوات نصير فصكت الشذوات بعضها بعضاً حتى لم يكن للاشتياميين والجذافين فيها حيلة ولا عمل ورأى الزنج ذلك فاجتمعوا على الشذوات وأحاطوا بها من جانبي نهر أبي الخصيب فألقى

الجذافون أنفسهم في الماء ذعراً ووجلاً... وقد حصن صاحب الزنج هذه القنطرة ونصب الى جوارها أعمدة من الساج وصل بعضها ببعض وغلفها بالحديد وبنى امامها سداً من الحجارة ليضيق المدخل على سفن العباسيين . وقد بذل أبو أحمد الموفق جهوداً كبيرة لتدمير هذه القنطرة الحصينة واستخدم في هذه العملية النجارين والمهندسين والحراقات (أي السفن التي تحارب بالنار) ، ودافع الزنج دفاع المستميت عن القنطرة لأن ازالتها تعني دخول سفن العباسيين الى النهر وازالة الجسرين اللذين شيدهما صاحب الزنج بعد القنطرة . وحين تم للعباسيين احراق القنطرة وازالتها توغلت سفنهم في النهر فعلاً وأخذت تعمل على تخريب هذين الجسرين ، وقد تم لها ذلك بعد محاولات عديدة وأثر دفاع صادق بذله الزنج . وحين أحرق العباسيون الجسرين في سنة ٢٦٩ انقطعت الصلة بين جانبي المختارة الشرقي والغربي ، وضاع آخر أمل للزنج في الاحتفاظ بعاصمتهم . وعلاوة على القنطرة والجسرين أنشأ علي بن محمد قنطرتين على نهر منكي وأخريين على نهر الغربي ، وربما أنشأ قناطر أخرى على غيره من أنهار المختارة .

التنظيم الاقتصادي :

اهتم صاحب الزنج اهتماماً كبيراً بتوفير المؤن والأقوات لعاصمته ولجيشه الضخم ، ومن ثم شيد أسواقاً كثيرة في الجانب الغربي من المختارة منها السوق «المباركة» وكانت واسعة عظيمة تقع في ظهر دار الهمداني متصلة بالجسر الأول المعقود على نهر أبي الخصيب ، وكانت مليئة بالبضائع والأمتعة . كما نجد اشارة الى سوق دعاها الزنج «الميمونة» وكانت تطل على دجلة . وحين هدم العباسيون هذه الاسواق نقل الزنج أسواقهم أول الأمر

الى «سوق الحسين» في أقاصي نهر أبي الخصيب ، حيث ارتفعت الأسعار حتى بلغ سعر الرطل من الخبز عشرة دراهم(١٢) . فلما تخرب الجزء الغربي من مدينة المختارة ، نقل علي بن محمد أسواقه الى الجهة الشرقية حيث نجد «سوق الغنم» . وعلاوة على هذه الأسواق اتخذ علي بن محمد بيادر ومخازن للحبوب في معسكره لكي يوفر لاتباعه القوت خاصة وقد كان معرضاً للحصار على الدوام . ومما يثير الاعجاب حقاً أن الزنج لم يعتمدوا على ما كان يردهم من الميرة من الخارج بل حاولوا أن يستغلوا الأراضي الزراعية المحيطة بعاصمتهم في انتاج الحبوب والخضروات ، مثال ذلك الأراضي الواقعة في نهر الغربي التي زرعوا فيها الغلات لهذا الغرض . فضلاً عما كانت تغله تلك المناطق من التمر الذي كان غذاء رئيسياً اعتمد عليه الزنج .

شغلت قضية التموين صاحب الزنج الى أقصى الحدود منذ بداية ثورته لذلك استمال الاعراب الى جانبه وسخرهم في جلب المؤن الى معسكراته ومنعها عن المعسكر العباسي . ففي سنة ٢٥٧ أمر قائده علي بن أبان أن يعسكر بالخيزرانية من نواحي جبّي (بالاهواز) ليمنع ورود الميرة الى أهل البصرة ، وقد أفلح القائد الزنجي في هذه المهمة وقطع المواصلات بين الاهواز والبصرة حتى عض الجوع أهل هذه المدينة وندرت بها الاقوات . ولما فتح صاحب الزنج البصرة ولاها رجلاً من قدماء اتباعه يدعى أحمد بن موسى ابن سعيد القلوص فصارت سوقاً للزنج يأتيها الاعراب والتجار للبيع والشراء ويجلبون لها المير والتجارات فتنقل الى معسكر الزنج . فلما أسر الموفق القلوص ولاها صاحب الزنج مالك بن بشران ، وحين هدد العباسيون البصرة ، أمره أن ينقل معسكره الى نهر الديناري ويرسل جماعات من أتباعه لصيد السمك ، وجماعات أخرى للمرابطة في الطرق التي يسلكها الاعراب من البادية «فاذا وردت قافلة أعراب يتلقاها ويحمل ما تأتي به»(١٣) ، وقد

نفذ الوالي المهمة على خير ما يرام وأخذ يرسل السمك من البطيحة الى معسكر الزنج أولاً بأول في زوارق صغيرة . كذلك أخذت مير الاعراب تصل من البادية فتحسنت أحوال الزنج وظلوا على رغد من العيش حتى نقل أحد الجواسيس أخبار مالك بن بشران الى الموفق وأعلمه بموضع اقامته ودله على المنافذ التي يصل منها السمك والميرة الى معسكر الزنج ، فباغت الموفق مالكاً وهزمه ، مما اضطره الى أن ينقل معسكره الى نهر اليهودي ـ من أنهار أبي الخصيب ـ وأخذ يرسل التموين من هناك عن طريق سبخة الفياض . وحين علم الموفق بذلك أمر ابنه أبا العباس بقطع هذا الطريق على الاعراب ، فوجد جماعة منهم وقد أوردوا من البادية ابلا وغنما وأقواتاً فأوقع بهم قتلا وأسرا واستولى على ما كان معهم وقطع يد أحد الأسرى ونكل بالآخرين مما أرهب مالك بن بشران ودفعه الى الاستسلام .

وأقام صاحب الزنج شخصاً جديداً للاشراف على نقل التموين هو أحمد بن الجنيد في مؤخر نهر أبي الخصيب ، وكلفه أن يحمل سمك البطيحة الى معسكره ، لكن الموفق أقام فرقة من جيشه في جزيرة الروحية فقطع سمك البطيحة عن الزنج ، كذلك منع الاعراب من حمل المير الى المعسكر الزنجي وفتح لهم سوق البصرة ليختاروا منه ما يشاؤن من التمر الذي كان البضاعة الرئيسية للتبادل بينهم وبين الزنج . ذلك أن هذه المنطقة الغنية بالنخيل كانت وسيلة صالحة لمبادلة التمر بما يحمله الاعراب من السلع ، بعد ما يستهلك الزنج جزء منه كغذاء لهم . ويصح أن نفترض بأن هؤلاء الباعة المغامرين الذين طالما عرضوا حياتهم للاخطار كانوا يحصلون على ربح لا بأس به جزاء ما يحملونه من الدقيق والأغنام وغير ذلك من الحاجيات . ويبدو أن الزنج استغلوا الاسلاب والغنائم والاموال التي وقعت في أيديهم على أثر انتصاراتهم وما كانت تدره عليهم الضرائب التي فرضوها على رعاياهم من أهل القرى في هذا السبيل[١٤] .

وحين اشتد الحصار الاقتصادي الذي ضربه أبو أحمد على هذا النحو ، سلك الزنج طريقاً آخر لتطمين التموين هو أن تسلك سفنهم نهر الأمير الى نهر القندل ثم نهر المسيحي الى «الطرق المؤدية الى البر والبحر»(١٥) . أما السمك فأخذ الزنج يجلبونه من البحر عن الطريق نفسه . لكن الموفق ما لبث أن سد هذه المسالك أيضاً بقوة كبيرة ، وبذلك قاسى الزنج صعوبة شديدة في تموين عاصمتهم ، وزاد الأمر سوءاً أن الموفق وقواده أخذوا ينكلون بالاعراب من بني تميم وغيرهم كلما باغتوهم يحملون الطعام والبهائم الى معسكرات الزنج ، وما حلت سنة ٢٦٨ حتى بدأ هؤلاء يشعرون بالجوع ويفتقدون الطعام الذي كان انعدامه سبباً رئيسياً في اخفاق ثورة الزنج .

التنظيم الاداري :

حاول صاحب الزنج أن يقيم في عاصمته مؤسسات ادارية ومالية لا لتشرف على سير الحرب فحسب ، بل لتتولى الشؤون المدنية داخل «الدولة» القصيرة العمر التي شكلها علي بن محمد ، وكان علي هذا على رأس الدولة واشتهر بلقب «صاحب الزنج» الذي أطلقه عليه معاصروه . كان علي بن محمد قائداً عسكرياً عاماً لجيوش الزنج يساعده في وضع الخطط وتنفيذها وقيادة الجيوش قواد آخرون من أتباعه الأول الذين ثبتوا جانبه منذ بداية الحركة حتى لقوا مصيرهم ، ولعل أجدرهم بالذكر والتقدير على بن أبان المهلبي وانكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع وابراهيم بن جعفر الهمداني وغيرهم . أما علي بن أبان وانكلاي فقد صمدا حتى مقتل زعيمهما ولم يستسلما الا بعد أن حوصرا في نهاية الحركة ، وأما سليمان وابراهيم فقد أسرا في موقعة فاصلة سنة ٢٧٠ . وتتردد أسماء قواد آخرين

من الزنج منهم بهبوذ بن عبدالوهاب الذي قتل سنة ٢٦٨ وسليمان بن موسى الشعراني ونادر الأسود وريحان بن صالح المغربي وراشد القرماطي وطريف وصبيح الأعسر وغيرهم . وأكثر هؤلاء من الذين انضموا الى صاحب الزنج في بدء ثورته .

لم يقتصر واجب «صاحب الزنج» على وضع الخطط وقيادة الجيوش بل كانت له صفة مدنية باعتباره رأس «الدولة الزنجية» ، وكان اللقب المدني الذي أضفاه على نفسه هو لقب «أمير المؤمنين» الذي ضربه على نقوده[١٦] ، وهو يعني أن علياً بن محمد اعتبر نفسه خليفة يحكم دولة مستقلة لا تخضع للخلافة العباسية في قليل أو كثير . ان العلامات التي تميز الخليفة هي الخطبة والسكة ، وما دام علي بن محمد لم يخطب باسم الخليفة العباسي ، وضرب نقوداً تحمل اسمه هو فحسب وتلقب فيها بأمير المؤمنين ، فان ذلك دليل واضح جداً على نوايا صاحب الزنج في اقامة دولة مستقلة اعتبر نفسه رأسها وخليفتها الذي يجمع بين يديه السلطات الزمنية والروحية . لقد كان صاحب الزنج يؤم أتباعه في المسجد الجامع الذي شيده في المختارة ويخطب فيهم في الاعياد والمناسبات متخذاً لقب «الإمام» كما تروي المراجع[١٧] .

وقد أسس صاحب الزنج في المختارة دواوين مختلفة كمؤسسات ادارية ، نستطيع أن نميز منها ديواناً للرسائل ، مستنتجين ذلك من وجود كتاب مختلفين كانت مهمتهم اعداد الرسائل لصاحب الزنج ولغيره من القواد الكبار ، فقد كان لعلي بن محمد كاتب يُعد له رسائله الى قواده والى الجهات ، مع العلم أن علياً كان يجيد الكتابة . يقول الطبري[١٨] عن صاحب الزنج انه «دعا بدواة وقرطاس لينفذ كتاباً الى علي بن أبان يعلمه ما قد

أطله من الجيش... وأقبل على كاتبه...» ونجد اسم محمد بن سمعان يتردد كثيراً في أحداث ثورة الزنج باعتباره وزير علي بن محمد وكاتبه ، ونستدل على مكانة ابن سمعان من أنه اتخذ له وكيلاً يدعى العراقي كان يساعده في أداء أعماله الكتابية . كذلك اتخذ المهلبي ـ من قواد الزنج ـ كاتباً له يدعى الكرنبائي الذي كان يسكن في دار انيقة في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب عند التقائه بشط العرب . على حين كان ريحان بن صالح المغربي حاجب انكلاي ـ ابن صاحب الزنج ـ وقد تمتع بمركز طيب ، مما يدل على أهمية الحجابة في دولة الزنج . واشتهر في مجال الكتابة محمد بن ابراهيم الذي كتب لأحمد بن مهدي الجبائي أحد كبار الموظفين الزنج . وترد بعض الاشارات الى دواوين الزنج التي أحرقها العباسيون ودمروها في الفترة الأخيرة من الحرب دون تمييز لانواعها واختصاصاتها ، غير اننا نستطيع أن نستنتج وجود ديوان للجند مهمته توزيع الاعطيات والأرزاق عليهم ، وديوان البريد ، هذا فضلاً عن انشاء الزنج لخزينة مركزية بمثابة بيت المال . ويقول الطبري[١٩] في ذلك في معرض حديثه عن الأعمال الحربية التي قام بها الموفق في المختارة «وأفضى أصحاب الموفق الى دواوين من دواوين الخبيث ـ يعني صاحب الزنج ـ وخزائن من خزائنه فانتهبت وأحرقت» .

واحتذى صاحب الزنج حذو غيره من حكام المسلمين في التنظيم الأداري فعين له عمالاً يتولون أقاليم دولته ويصرفون كافة شؤونها ، فنجد أحمد بن مهدي الجبائي الذي وصل الى مركز مرموق في «دولة الزنج» حتى ولاه علي بن محمد أكثر أعماله وضم اليه محمد بن ابراهيم الذي تولى الكتابة له ، فلما مات الجبائي طمع محمد بن ابراهيم في وظيفته «فنبذ الدواة والقلم ولبس آلة الحرب وتجرد للقتال»[٢٠] ، ولما برهن على قابلية عالية ولاه صاحب الزنج منصباً كبيراً . وكان أحمد بن موسى القلوص واليا

للزنج على البصرة بعد احتلالهم اياها سنة ٢٥٧ ، فلما أسره العباسيون تولاها ابن أخته مالك بن بشران . على حين تولى الهمداني منصباً ادارياً كبيراً ، وكان المهلبي يلي الاهواز وبهبوذ بن عبدالوهاب يلي الفندم والباسيان وما اتصل بهما من القرى التي بين الاهواز وفارس وقد اتخذ الفندم مركزاً لاقامته . وكان عبدالله بن محمد بن هشام الكرماني يلي القضاء والصلاة بطهيثا ، كما وضع صاحب الزنج قضاة آخرين في مختلف البلدان التابعة له ، منهم سعيد بن السيد العدوي قاضي قرية الحجاجية بواسط ، وقاض آخر كان يصرف شؤون القضاء بعبادان ، فضلاً عن وجود قاض في المختارة نفسها لعله كان يمثل قاضي القضاة[٢١] .

وبالإضافة الى ما ذكرنا من المؤسسات العامة نجد اشارات لبضعة سجون شيدها الزنج في عاصمتهم واتخذوها محابس لأعدائهم واسراهم في حروبهم الطويلة . فهناك سجن في غربي نهر أبي الخصيب وآخر في الجانب الشرقي ، يذكر المؤرخون أن الموفق وجد فيهما عند اقتحام عاصمة الزنج كثيرين من الأسرى والسبايا .

ونود أن نكرر الاشارة أخيراً الى النقود التي أصدرها علي بن محمد في عاصمته مما يشير الى وجود دار لضرب النقود من ناحية والى اعلان استقلاله الفعلي عن الدولة العباسية من ناحية ثانية . وهناك قطعتان نقديتان ذهبيتان للزنج توجد احداهما في المتحف البريطاني والأخرى في باريس ، وترجع الأولى الى سنة ٢٦١ على حين ضربت الأخرى سنة ٢٦٤ . وهذا دليل على أن الحياة العامة والنظم المالية استمرت في دولة الزنج بضع سنوات . وقد نشر الاستاذ ووكر القطعة الأولى الموجودة في المتحف البريطاني ، على حين نشر الاستاذ كازانوفا القطعة الأخرى الموجودة الآن في باريس[٢٢] .

وقد حذا صاحب الزنج حذو غيره من الحكام المسلمين فنقش على نقوده آيات قرآنية وذكر اسمه وتلقب بلقب أمير المؤمنين ، كما أنه ضمن نقوده تاريخ الضرب ومكانه . وقد أسلفنا وصف الكتابات التي وردت في قطعة الاستاذ ووكر فلا حاجة بنا الى اعادة الحديث . وكل ما نريد أن نؤكده هنا هو أن الزنج حاولوا اقامة دولة تتوافر فيها شروط السيادة والاستقلال عن جسم الامبراطورية العباسية ، باعتبار أن السكة شرط لازم من هذه الشروط .

مراجع وملاحظات الفصل السادس

(١) الطبري ج٧ ص٥٦٦ ، ابن أبي الحديدي ج٨ ص٣١٥ .

(٢) المرجع نفسه : ج٧ ص٥٩٥ .

(٣) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٧ .

(٤) المرجع نفسه : ج٨ ص٨٩ ومواضع أخرى .

(٥) المرجع نفسه : ج٨ ص٨٩ .

(٦) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٩ .

(٧) المرجع نفسه :ج٨ ص٩٣ .

(٨) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٦ .

(٩) المرجع نفسه : ج٨ ص١٢٤ .

(١٠) المرجع نفسه : ج٨ ص١٢٨ ـ ١٣٠ .

(١١) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٣ .

(١٢) المرجع نفسه : ج٨ ص١١٧ .

(١٣) المرجع نفسه : ج٨ ص٩٤ .

(١٤) Noldeke, P., 157.

(١٥) الطبري ج٨ ص٩٦ .

(١٦) Walker, A Rare Coin of the Zanj, P., 651 -- 54.

(١٧) مرآة الزمان ج٦ ص١٨٨ .

(١٨) الطبري ج٨ ص٥ .

(١٩) المرجع نفسه : ج٨ ص١٠٦ .

(٢٠) المرجع نفسه : ج٨ ص٧٣ .

(٢١) المرجع نفسه : ج٨ ص٤٠ ، ٧٠ .

(٢٢) Casanova, Revue Numismatique, P., 510 __ 16.

فهرس الكتاب

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(هـ)

(ي)

المراجـع

١ ـ المراجع العربية

ابن الأثير (٦٣٠هـ[1] = ١٢٣٨م) علي بن أحمد بن أبي الكرم الملقب عزالدين .
«**الكامل في التاريخ**» ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ ـ الازهرية ١٣٠١) .
أحمد أمين
«**فجر الاسلام**» (مصر ١٩٣٥) .
الاستراباذي
«**حاوي الاقوال في منهج المقال ونقد الرجال**» (طهران ١٣٠٤) .
الاصطخري (ق ٤ هـ) أبو القاسم ابراهيم
«**مسالك الممالك**» (ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣م) .
بارتولد . ف
«**تاريخ الحضارة الاسلامية**» ترجمة حمزة طاهر «المعارف ١٩٤٢» .
البستاني : بطرس
«**دائرة المعارف للبستاني**» بيروت ١٨٨١ .
البغدادي (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧م) أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر
«**الفرق بين الفرق**» (القاهرة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م) .
البلاذري (٢٧٩) أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي
«**فتوح البلدان**» (مصر ١٣١٨ هـ = ١٩٠١م) .
البيروني (٤٤٠هـ — ١٠٤٨م) أبو الريحان محمد بن أحمد
«**الآثار الباقية عن القرون الخالية**» (ليبسك ١٨٧٨م) .
ابن البيطار (ق ٦ هـ) عبدالله بن أحمد
«**الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**» (بولاق ١٢٩١ هـ) .

(١) السنة المثبتة أمام اسم كل مؤلف هي سنة وفاته .

التنوخي (٣٨٤ هـ) أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم
« **كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** » (مصر) .
الجاحظ (٢٥٥هـ = ٨٦٩م) أبو عثمان عمرو بن بحر
« **مجموعة رسائل الجاحظ** » (مطبعة التقدم مصر) .
« **البخلاء** » (مطبعة ابن زيدون ـ دمشق ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨) .

ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي القرشي التميمي البكري البغدادي
« **المنتظم في أخبار الأمم** » .
جوزي : بندلي
« **من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام** » (مطبعة بيت المقدس سنة ١٢٨٨) .
ابن أبي الحديد (٦٥٥هـ) عبدالحميد بن هبةالله بن محمد بن محمدالمدائني
« **شرح نهج البلاغة** » ١٠ أجزاء (مصر ١٢٨١هـ) .
أبو حنيفة : النعمان بن ثابت (١٥٠هـ)
« **الفتاوى العالمكيرية المعروفة بالفتاوى الهندية** » (مصر سنة ١٢٨٢) .
ابن حوقل (ق٤هـ) أبو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصلي
« **المسالك والممالك** » دي غويه (ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣م) .
ابن خرداذبه (٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الخراساني
« **المسالك والممالك** » دي غويه (ليدن ١٨٨٩) .
الخضري : الشيخ محمد
« **تاريخ الدولة العباسية** » (القاهرة ١٩١٦م) .
ابن خلكان (٦٨١هـ - ١٢٨١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبي بكر الشافعي
« **وفيات الأعيان** » جزآن (بولاق ١٢٨٣هـ) .
الخوارزمي : جمال الدين أبو بكر
« **مفاتيح العلوم** » (بغداد) .
ابن الداية (٣٣٠هـ = ٩٤١م) أبو جعفر أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم
« **سيرة أحمد بن طولون** » (برلين ١٨٩٤م) ضمن كتاب ابن سعيد
« **المغرب في حلي المغرب** » .
ابن الرومي (٢٨٤هـ) أبو الحسن علي بن العباس بن جريح
« **ديوان ابن الرومي** » (تصنيف كامل كيلاني مصر ١٩٢٤م) .
زيدان : جرجي
« **تاريخ التمدن الاسلامي** » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦م) .

سبط الجوزي (٦٥٤هـ) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي بن عبدالله
« **مرآة الزمان** » (مخطوط) ٤٠ مجلد (دار الكتب المصرية رقم ٥٥١) .
سهراب
« **عجائب الأقاليم السبعة ونهاية العمارة** » (ليبسك) .
السيوطي (٩١١هـ = ١٦٠٥م) عبدالرحمن ابن أبي بكر جمال الدين
« **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين بأمر الأمة** » (القاهرة ١٣٥١هـ) .
الشهرستاني (٥٤٨هـ = ١١٥٣م) أبو الفتح محمد بن عبدالكريم
« **الملل والنحل** » (مصر ١٣١٧هـ) .
الطبري (٣١٠هـ = ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير
« **تاريخ الأمم والملوك** » ٨ أجزاء (مطبعة الاستقامة ١٣٥٨هـ) .
الطحاوي (٣٢١هـ) أبو جعفر أحمد بن محمد الحنفي
« **مختصر الطحاوي** » (دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٣٧٠هـ) .
ابن الطقطقي (٧٠٩هـ) محمد بن علي بن طباطبا
« **الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية** » (القاهرة ١٩٢٣) .
الظاهري (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) ابن حزم أبو محمد على بن أحمد
« **الفصل في الملل والأهواء والنحل** » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧) .
العاملي : محسن الأمين الحسيني
« **أعيان الشيعة** » ١٤ جزء (دمشق ١٩٣٥ ـ ٣٦) .
عبدالعزيز الدوري : دكتور
« **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع** » (بغدا ١٩٤٨) .
فان فلوتن
« **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية** » ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي ابراهيم (القاهرة ١٩٣٣) .
القيرواني (٤٥٤هـ) أبو اسحاق ابراهيم علي الحصري
« **ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر** » (مصر) .
ابن كثير (٧٧٤هـ) أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الشافعي
« **البداية والنهاية في التاريخ** » ١٤ جزء (مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢) .
لويس : برنارد
« **أصول الإسماعيلية** » ترجمة خليل جلو وجاسم محمد الرجب (مصر ١٩٤٧) .
الماوردي (٤٥٠هـ = ١٠٥٧م) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي
« **الأحكام السلطانية** » (القاهرة ١٢٩٨) .
أبو المحاسن (٨٧٤هـ = ١٤٦٩م) جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي

«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ٩ أجزاء (مصر ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠) .
متز ، آدم
«تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع» ترجمة الدكتور عبدالهادي أبو ريدة (مصر) .
المسعودي (٣٤٦هـ = ٩٥٦م) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
«مروج الذهب ومعادن الجوهر» جزآن (القاهرة ١٣٤٦) .
الملطي (٣٧٧هـ = ٩٨٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد .
«التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» (المكتبة الظاهرية بدمشق ـ كتب التوحيد رقم٥٩) . طبع في مصر سنة ١٩٤٩ باعتناء محمد زاهد الكوثري .
المقدسي (٣٨٧هـ = ٩٩٧م) شمس الدين أبو عبدالله محمد
«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (ليدن ١٩٠٦م) .
المقريزي (٨٤٥هـ = ١٤٤١م) تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد
«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» جزآن (بولاق ١٢٧٠هـ)
ناصر خسرو العلوي (٤٨١هـ = ١٠٨٨م)
«سفرنامه» ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (مصر) .
نظام الملك
«سياسة نامه» (مؤسسة خورشيد بطهران ١٣١١هـ) .
ابن الوردي (٧٤٩ أو ٧٥٠هـ) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس بن علي المصري الحلبي
«تتمة المختصر في أخبار البشر» (مصر ١٢٨٥هـ) .
ياقوت (٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي
«معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م) .
«معجم الأدباء» ٢٠ جزء (دار المأمون ـ مصر) .
اليعقوبي (٢٨٢هـ = ١٨٩٥م) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
«تاريخ اليعقوبي» ٣ أجزاء (مطبعة الغري بالنجف سنة ١٣٥١هـ) .
اليماني (القرن الخامس الهجري) محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي
«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» (مصر ١٣٥٧هـ = ١٩٣٩م) .
أبو يوسف (١٩٢هـ = ٨٠٧م) يعقوب بن ابراهيم
«كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢هـ والسلفية ١٣٤٦هـ) .

المراجع الافرنجية

Browne, Edward G.

"A Literary History of Persia" 2 vol. (London 1920).

Bury, H. B. "History of Greece" (London 1938).

Cambridge Ancient History (Cambridge 1932).

Cary, M. "A History of Rome" (London 1945).

Chafik, Ahmed "L'esclavage au point de vue Musulman" (le Caire 1938)

والترجمة العربية «الرق في الاسلام» (بولاق ١٣٠٩هـ) .

Demombynes, M. Gaudefroy

"Les institutions Musulmanes" (Paris 1946).

ترجمه الى العربية فيصل السامر بالاشتراك مع صالح الشماع (بغداد ١٩٥٢) .

Dozy

Supplemet Aux Dicionnaires Arabes".

Fisher, H. A. L.

"A History of Europe" (London 1943)

Fitzgerald, Malter.

"Africa, a Social, Economic & Political Geography of the Major Regions" (London 1950).

Fouad Safar,

"Wasit" (Cairo 1947).

Johnston, H. H.

"The Opening up of Africa" (London 1928).

Hutchinson, Edward.

"The Slave Trade of East Africa" (London 1874).

Lane,

"Arabic - English Lexicon".

Le Strange, Guy.

"Baghdad during the Abbasid Caliphate" (Oxford 1924).

والترجمة العربية «بغداد في عهد الخلافة العباسية» ترجمة بشير فرنسيس .

"The Lands of the Eastern Caliphate". (Cambridge 1931).

Massignon.

"The Zanj" an article. In the Encyclopedia of Islam.

Vol. IV.

Muir, W.

"The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall" (Edinburgh 1924).

Noldeke, Theodor.
"Sketches from Eastern History" (London 1892).
Robinson, J. H.
"History of Europe" (Boston).
Walker,J.
"A Rare Coin of the Zanj".
(The Journal of the Royal Asiatic Society, July, 1933).
Encyclopedia Britannica.
Encyclopaedia o the Social Sciences.

الفهرس

ثــورة الزنــج

لقد أخذت على عاتقي أن أقدم للقارىء العربي هذا البحث المتواضع عن ثورة الزنج لاقيم الدليل على أنه من الممكن جداً أن نكتب تاريخنا بأسلوب جديد يعير الحركات الاجتماعية أهمية كبيرة وينظر اليها بمنظارجديد غير المنظار الذي نظر به المؤرخون القدامى ، أعني اننا يجب أن نعتبرها خطوات خطتها الشعوب الاسلامية نحو تحسين أوضاعها ، بغض النظر عن عدم انسجامها مع مصالح السلطات الحاكمة . وليس هذا فحسب بل ان الامانة العلمية تدعونا الى أن نعطي الحدث التاريخي حقه لا أكثر ولا أقل ونضعه في مكانه الصحيح من السلم التاريخي دون مبالغة أو تهويل أو انسياق وراء الخيال . ان الحقيقة التاريخية هي الهدف الأول للباحث ويجب عليه أن يعلنها مهما كلفه الأمر ، دون أن يتوقع رضى فريق أو غضب فريق آخر . ومن ثم فقد هدفت في هذا البحث الى أن أضع «ثورة الزنج» في مكانها التاريخي الصحيح مستنداً الى النصوص التاريخية بعد التحقيق والتمحيص ، كما حاولت جهدي أن تكون أحكامي مجردة عن كل هوىً أو تحيز ، وهي صفة يجب أن يتحلى بها كل من يتصدى لكتابة التاريخ .

ISBN => 2-84305-238-6
EAN => 9782843052385